قصة الخلق.. منابع سفر التكوين

د. سيد القمنى

قصة الخلق
أو
منابع سفر التكوين

سيد محمود القمني

الإهداء

لذكرى أبى

مفتتح

سفر التكوين هو قصة البداية

أو هو سفر الحكاية الأولى ..

أو هو رواية المجتمع الإنسانى مذ كان تجمعاً، فى البدء وكيف كان؟ إلى أن بلغت الرواية اكتمال نضجها مع قمة تطور السلطة في المجتمع الإنساني،وعندما يحدث التطور الجديد الآتي، فلن يكون ثمة حاجة للرواية، التي رفعت من زمن بعيد لعالم مفارق، كمرآة للواقع الأرضى.

فعندما كان المجتمع في الابتداء مشاعاً، كانت أرباب السماء في متعة الشيوع تمرح ، وعندما تحول المجتمع الأرضي إلى مشتركات ترأسها مجامع ديمقراطية بدائية، أصبح للآلهة ذات المجامع ، لكن لتقرر للبشر على الأرض المصائر، وعندما تم تقسيم العمل على الأرض ، تحول مجتمع السماء إلى آلهة شغيلة ، وآلهة للتفكير والتدبير.

وعندما تمكن الإنسان من الابتكار وصنع جديد، لم يكن من قبل كائناً، تمكنت آلهة السماء من الخلق والتكوين ، وعندما تمركزت السلطة

على الأرض في يد ملك على رأس دولة مركزية، وأصبحت كلمة الملك نافذة لا تقبل الإرجاء، قيل إنه في البدء كانت الكلمة. رغم أنه في البدء كان المشاع ، والفعل بلا كلام، فلم يكن ثمة لغة بعد.

وما كتابنا هذا إلا شرحٌ لذاك.

وما كشوفنا فيه إلا ناتج قراءة غير مقلوبة لأوضاع مقلوبة، ورؤية غير معتادة لرؤى معتادة ، وربط للأرض بالسماء، وتسجيل لأثر الإنسان القدسي ووحيه الصاعد على معراج حركة المجتمع البشري.

وإذا وجد قارئنا في تلك المقدمة العجلى لغزاً، فما عليه إلا أن يشمر عن همته ليتابع معنا الحل في صفحات الكتاب.

الباب الأوّل

سفر التكوين السومري

تأسيس

يبدو أن بداية الألف الثالثة قبل الميلاد،كانت بداية لأهم أحداث المجتمع الإنساني، وأبعدها أثراً، فى منطقة الشرق الأدنى بوجه خاص، تلك الأحداث التى تركت لنا تراثاً ضخماً، سجلته المدونات، حين بدأ اكتشاف الكتابة، حوالى ذلك الزمان، أو بعده بقليل.

فحوالى سنة ٢٩٠٠ق.م،كانت مصر قد تحولت من مجموعة مشتركات إقليمية، إلى دولة مركزية موحدة،بينما كان الشعب السومري، قد قضى حوالى خمسة قرون قبل ذلك،يلملم ذاته فى جنوبى وادى الرافدين الخصيب،حتى تمكن من تكوين مجموعة مشتركات مدينية، على هيئة مدن مستقلة،يشكل كل منها دولة قائمة بذاتها مع محاولات جادة للتوحيد، لم يكتب لها النجاح الأكيد،ومن ثم لم تقدر لها الاستمرارية،وإن استطاعت هذه المدن — إلى حد بعيد — أن تترك لنا تراثاً حضارياً ثرياً،يزخر بالقصص والملاحم والأدب الديني، يفسر نشأة الوجود كونياً وكائنياً.

وحوالى نفس الزمان،أو بعده بقليل،تدفقت على وادى الرافدين موجات بشرية مهاجرة،كانت ضمن بحر زاخر من دفقات شعوب مرتحلة، انتشرت بسرعة قياسية على صفحة بادية الشام،وكل بلدان الهلال الخصيب (الرافدين، سوريا، لبنان، فلسطين،الأردن) إضافة إلى بادية الشام،واصطلح على تسمية هذه الهجرات (هجرات الشعوب السامية)،وقد زعم كثير من الباحثين أن مصدرها جزيرة العرب، وبالتحديد جنوب الجزيرة، وإن كانت هناك اتجاهات بحثية أخرى لها وجاهتها،قدرت أماكن أخرى كمصدر لهذه الموجات البشرية المتدفقة على شرقى المتوسط، تقصد أماكن الخصب والنماء.

ويلخص (حسن إبراهيم حسن)مختلف اتجاهات الباحثين حول مصدر هذه الهجرات،التى بدأت فى الألف الثالثة قبل الميلاد ـ فيما يزعمون ـ،أو هو بالتحديد يلخص أهم الآراء فى أصل الشعوب السامية، فيقول:

«وقد اختلف المؤرخون فى موطن الساميين الأصلى،أهم من بلاد العرب؟ أم رحلوا إليها من أفريقيا (أصلا؟)أم رحلوا إليها من بلاد الجزيرة؟..فيقول أصحاب التوراة:إن مهد الإنسان فيما بين النهرين (الرافدين)،ومنه تفرقوا فى الأرض فاشتق من الساميين: الآشوريون والبابليون فى العراق،والآراميون فى الشام والفينيقيون على شواطئ سوريا،والعبرانيون فى فلسطين، والعرب فى جزيرة العرب،والأثيوبيون فى الحبشة، ومرجعهم فى إثبات ذلك إلى التوراة، ولا يقول هذا من علماء العصر إلا قليلون.ويرى بعض المستشرقين أن مهد الساميين فى أفريقيا،ونظراً لقرب بلاد الحبشة من بلاد العرب إقليماً ولغة،قالوا:إن مهد الساميين الحبشة،ويرى

بعض آخرون أن مهد الساميين جزيرة العرب،ومنها تفرقوا فى الأرض كما تفرقوا فى صدر الإسلام،وذهبت طائفة أخرى إلى أن الساميين من جنوبى الفرات، ولكل من هؤلاء أدلة جغرافية أو اقتصادية أو جنسية أو لغوية، ويرى بعض المستشرقين أيضاً، أن مهد الساميين فى بادية الشام إلى نجد، ولم يقطع العلماء فى أصل مهد الساميين برأى حتى الآن»[1].

المهم أن هؤلاء النازحين لم يضيعوا وقتا طويلا، حتى استطاعوا أن يقيموا لهم دولاً فى المنطقة، وتأتينا أهم هذه الشعوب التى أسست هذه الدول، ما بين الأكاديين AKADI الذين تمكنوا من التسلل البطىء إلى بلاد سومر الرافدية، ثم استولوا عليها ووحدوا مدنها فى دولة مركزية، بقيادة زعيمهم (سرجون الأول SHARRUKEN-I)،حوالى عام ٢٤٥٠ ق.م، وبين الكنعانيين KANANI الذين تفرقوا فى الأرض الشامية حوالى ٢٥٠٠ق.م، حيث أسسوا مجموعة حضارات متناثرة، حملت أسماء بطون كنعانية، هى فيما تزعم التوراة: المؤابيين، والآدوميين،والعمونيين، والعموريين وقد استطاع البطن العمورى أو الأمورى فى وقت لاحق، أن يخلف

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافي والاجتماعى، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، القاهرة ١٩٦٤م، ج١، ص٨.

الدولة السومرية الحديثة التى خلفت الأكاديين فى الرافدين،وأن يؤسس الدولة البابلية بينما ظهرت علـــى ســـاحل المتوسط جماعات أخرى،سلكت سبيل تفوقها بالسيطرة الملاحية على البحر، فى وقت متأخر من الألف الثانى قبل الميلاد،ويُرجح أنهم كانوا خليطاً من أجناس مختلفة، وإن غلب عليهم العنصر السامى الكنعانى، وهم من عـــرفهم التاريخ باسم الفينيقيين.

ويزعم المؤرخون،أنه قد تلت هذه الموجة الأولى من الهجرات ــ فى وقت متأخر نسبياً ــ موجـــة أخـــرى كبرى،حوالى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، هى هجرة الآراميين، الذين استقروا أول أمرهم فى بادية الشام، ثم أخذوا بمنافسة بنى جلدتهم الساميين على أراضى الخصب، سواء فى الرافدين أو الشام، ردحـــا طـــويلا مـــن الزمان، فكانوا عامل اتصال وتواصل،بين ساميى الرافدين وساميى الشام، ويُرجح أنهم تكونوا من عدة بطون من أصل واحد، باعدت بينهم الأزمان والكثرة العددية، ويزعم بعض المؤرخين أنه كان منهم الشعب العبرى، الـــذى ظهر على صفحة التاريخ حوالى بداية القرن الثالث من الألف الثانية قبل الميلاد، بعد أن دخل مصر وخرج منها بقيادة النبى (موسى) حوالى عام ١٢٣٤ ق.م،بقصد الاستقرار فى أراضى الكنعانيين، أرض فلســـطين الحاليـــة، وتمكنوا حوالى ١٠٠٠ ق.م، أن يقيموا لهم دولة، كان أشهر ملوكها شاؤول ثم داود فسليمان، بينما ظلـــت بقيـــة البطون الآرامية غير ذات شأن،حتى

استطاع بعضهم أن يثبتوا وجودهم مع اضمحلال الدول الكبرى فى الرافـــدين فقـــاموا بغـــزو نـــاجح لجنـــوب الرافدين،أسسوا على إثره الدولة الكلدانية حوالى عام ٦٢٥ ــ ٥٣٨ ق.م.

وهكذا كانت المنطقة مسرحاً رحباً لهذه الدفقات البشرية، التى تكسرت موجاتها على بعضـــها فـــى الهـــلال الخصيب،مما جعلها ميداناً لحروب مستمرة بين هؤلاء المهاجرين وبين من سبقهم وبين من لحقهم،مما أدى إلـــى تبادل الفكر والثقافة،لكنه أدى أيضاً إلى عدم استقرار دول هذه المنطقة مدداً طويلة،بعكس مصر، التى توحـــدت

أراضيها مبكراً،وظلت دولة واحدة متماسكة طوال عصور تاريخها الطويل، عدا بعض الانتكاسات الطارئة،وهى انتكاسات لا تقاس بعمرها الحضارى، حتى أن الزمن الذى استغرقه مجموع هذه النكسات، يكاد يعـــادل الـــزمن الذى استغرقته أى من دول الهلال الخصيب متماسكة.

ورغم أن الباحثين يقطعون بأن الشعب السومرى الذى ظهر جنوبى الرافدين،قبل الهجرات السامية بحـــوالى خمسة قرون، أى حوالى ٣٥٠٠ ق.م، ليس من أصول سامية ورغم أن أصله لم يزل محوطاً بـــالغموض، فـــإن هؤلاء الباحثين قد تعارفوا على ابتداء العصور التاريخية شرقى المتوسط بالشعب السومرى، بعد أن احتســـبوهم الأصل والدافع الأول للحضارة العريقة التى قامت فى بلاد الرافدين،وكانت فى رأيهم المنبع الذى اســـتقى منـــه الساميون

الغزاة حضارتهم وفكرهم ودينهم،حتى أن كثيراً من هؤلاء الباحثين قد اعتبروا الحضارة الســـومرية،ذات تـــأثير مباشر وغير مباشر فى ديانات شعوب شرقى المتوسط حتى العصور الهلّينية[٢] .بل ويذهب هؤلاء إلى الزعم أن أهم المآثر الدينية السومرية،تعد حتى اليوم أهم الأعمدة،لأهم المآثر الدينية الحالية فى منطقتنا،ناهيك عن لغـــتهم وطريقتهم التى ابتكروها والمعروفة بالكتابة المسمارية التى ظلت طوال العصور التالية لهم، حتى بعد زوالهم من تاريخ الدنيا، هى طريقة الكتابة المتبعة، والتى أخذها عنهم الغزاة من المهاجرين الساميين، ليسجلوا بها مـــآثرهم الحضارية، مما ساعد على انتشار أصرح للمآثر السومرية بين الشعوب السامية أما الســـاميون الـــذين تســـيّدوا المنطقة بعد غروب النجم السومرى، فكانوا جميعاً من أصل واحد، وجنس واحد، بجملة عادات وتقاليد واحـــدة، مما سهل حمل الأفكار والمعتقدات فكانت اللغة السامية وسيلة اتصال جيدة (رغم تشعبها إلى لغات متعددة عبـــر تباعد اللهجات بتباعد الأمكنة والأزمنة)،بينما ظلت طريقة الكتابة المسمارية وسيلة توصيل دائمة الجودة.

---

[٢] جان بوتيرو: الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، نشر جامعة بغداد، ١٩٧٠، ص٢٦.

وسعياً وراء ذوى التخصص، ولو مؤقتاً، ونظراً لما لدينا من

تحفظات سنطرحها فى حينها، فسنبدأ عملنا للكشف عن منابع سفر التكوين، بدراسة ما رآه الباحثون تراثاً أعرق وأقدم فى المنطقة، أقصد المنابع السومرية.

* * *

المجتمـع:

حاول الباحثون باستمرار ـ وهم فى أغلبهم غربيون ـ أن يلقوا فى روعنا أن أى محاولات لاستطلاع أمر الرافدين قبل السومريين، هى محاولات عقيمة لن تصل أبداً إلى يقين، لأنه رغم أن الإنسان استوطن جنوبى وادى الرافدين قبل ما يزيد عن خمسة آلاف عام من الميلاد بزمان طويل[٣]، فإننا لا نعرف إلا القليل النادر عن هؤلاء السكان، لعدم وجود مدونات خطية، فلم تكن الكتابة اختراعاً معروفاً بعد، وكل ما نعلمه أنه كان هناك مستوطنون فى المنطقة قبل السومريين، كان أشهرهم ما أطلق عليه اصطلاحاً (عصر العبيد)، نسبة إلى المكان الذى عثر فيه على آثارهم ويسمى الآن تل عبيد، وانتهى أمرهم بالانقراض مع الفيضان العاتى لدجلة والفرات المعروف فى الملاحم الدينية بالطوفان.

ورغم أن هؤلاء الباحثين يندفعون فى أغلبهم إلى اعتبار هذه الفترة السابقة على السومريين، فترة حضارة سومرية أيضاً، فإن باحثاً شهيراً فى الأثريات السومرية هو (صموئيل نوح كريمر)، يذهب إلى أن حضارة السومريين إنما كانت ناتج تلاقح واضح بين شعب العبيد، المرجح عند (كريمر) أنه سامى الأصل، وبين الشعب

---

[٣]جوردون تشايلد: التطور الاجتماعى، ترجمة لطفى فهيم، مؤسسة كل العرب، القاهرة، ١٩٦٦، ص١٨٠.

السومرى الذين هم فى رأيه الوافدون الأغراب عن المنطقة، ثم يعقب بقوله: إنه «نتيجة للإخصـــاب المتبـــادل، ظهرت إلى الوجود أول مدنية راقية نسبياً فى بلاد سومر[٤]»، هذا مع أخذنا بالحسبان تأكيـــد (لويـــد Loide) أن السومريين لم يصلوا إلى جنوب الرافدين، إلا حوالى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد[٥].

لكننا ــ رغم إشارات باحث مثل كريمر ــ سنظل الآن مع الرأى الغالب، فنبدأ دراستنا مـــع الســـومريين، بحسبانهم لدى الباحثين فى مجملهم بداية وأصل الحضارة فى شرق المتوسط.

ومع بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، يمكننا أن نرسم صورة ــ غيـــر دقيقـــة المعـــالم تمامـــاً ــ للمجتمـــع السومرى، الذى شكل حضارة زراعية فى هذه المنطقة النهرية الخصبة،فى شكل مشتركات قروية فـــى البدايـــة، ولم تكن التجارة والنقود متطورتين بشكل واضح ــ فيما يخبرنا به شيسنو[٦]، أما الملكية فقد أخذت شكل الحيازة الفردية ضمن المجموع، المالك الحقيقى، بحيث أن ما كان يخص الفرد، إنما كان ضمن المشترك بوصفه عضواً متحداً به[٧]، بل ويعلمنا (فرانكفورت Frankfort) أن كل شىء كان ملكية جماعية، حتى أدوات الفلاحة والبهائم[٨].

ومع مرور الزمن، فى بيئة طبيعية متقلبة لا تعـــرف الاســـتقرار، وإزاء الـــــعواصف غيـــر المتوقعـــة، والفيضانات المفاجئة ارتبط هؤلاء

بقوى غير منظورة، ربطوها بظواهر الطبيعة، وتمثلوها فيها، وعبدوها رغبة ورهبة،واستشـــعروا إزاءهـــا

---

(٤) صموئيل نوح كريمر: السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة د. فيصل الوائلى، وكالة المطبوعـــات، الكويـــت، د.ت، ص٥٦.

(٥) سيتون لويد: آثار بلاد الرافدين، ترجمة د. سامي سعيد الأحمد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص٧٠.

(٦) Chesneaux (jean): In center d'Etudes et de Recherches Marxistes (C.E.R.M.) sur Le "Mode de prouction a siqtque" Edition sociales. Paris, ١٩٦٩, p.٢٩.

(٧) موريس غود ولييه: (ضمن كتاب: حول نمط الإنتاج الآسيوي، مع جان سوريه وآخرين، ترجمة جورج طرابيشي، دار الحقيقة، ١٩٧٢، ص٧٥).

(٨) Frankfort (Henri): La Royaute et les dieux, Paiot, Paris, ١٩٥١, p.٢٦٩.

التبعية التامة، لكن يبدو أن ذلك لم يكن بحد ذاته كافيا لجلب النافع من الطبيعة، أو على الأقل لدرء غضبها وكوارثها،ومن هنا احتاجت الأمور إلى تكاتف القوى البشرية مع القوى الإلهية، عن طريق وسيط بشري، يتسم بمواصفات رأوها آنذاك علامات لصلة جيدة بالآلهة، فكان هذا الوسيط هو الوساطة الناجعة مع الآلهة، فكان ذلك هو الشكل الرئاسى البدائى لإدارة شئون الجماعة، بقصد تقليل أخطار الطبيعة وجلب نفعها، عن طريق إدارة شئون العمل البشرى الفعلى المتكاتف، فى تنظيم أمور الرى والزراعة، والتخفيف من نتائج الكوارث وتنظيم القدرات فى مواجهتها، وفى الوقت نفسه يتم ذلك بعلاقة الوسيط مع الآلهة،التى توحى له بأفضل السبل لتوقى أخطار كانت هى اليد الفاعلة فيها؟!.

ومن ثم تقاربت الجماعات لتشكل مجتمعاً متحداً إزاء الطبيعة، وتخضع لهيئة إدارية من المتصلين بالآلهة، لتمثيل المشترك أمامها، وقد كون هؤلاء فئة متميزة وجهازاً متراتباً، يعلوه شخص كفء، كحاكم مفوض من قبل المشترك،ومسئول أول أمام أعضاء المشترك وأمام الآلهة فى آن واحد.

ويبدو أن الأمر قد بدأ بنوع من التفويض المؤقت لفرد (أصبح يختار له معاونين فيما بعد) من قبل أفراد المشترك جميعاً، والذين كانوا يشكلون مجتمعاً ديمقراطياً بدائياً، يمكن تصوره على هيئة مجلس عام. ويؤكد لنا (هنرى فرانكفورت H. Frankfort) أنه عندما ظهرت الكتابة، وجدنا إشارات لمجلسين هما: المجلس العام ومجلس الكبار[٩]، ومن ثم تفرغ هذا الفرد ومعاونوه من العمل البدائي،وركّزوا جهودهم الذهنية فى التعامل مع الآلهة وقدراتها الطبيعية، بمحاولة قراءة هذه القدرات الظاهرة والتنبؤ المستطاع بفعلها المستقبلى للمحافظة على نظم الرى، وتلافى أو مواجهة مشاكل قد تنتج عن تقلب المزاج الإلهى فى الطبيعة، أو لمواجهة حروب طارئة مع مشتركات مجاورة تحتاج إلى نشاط سريع وحاسم.

---

[٩]Frankfort (Henri): The Birth of Civilisation in the Near East, Wiliams and Norgate Limted, Great Britain, ١٩٥١, p.٢٩٠.

ومع استمرار الطوارئ،تحولت الحاجة لهذه الإدارة من حاجة مؤقتة طارئة إلى حاجة دائمـــة مســـتمرة،مما أدى إلى ديمومة سلطة الوسيط ومعاونيه فتحول بالتدريج إلى كاهن وحاكم كبير،كما تحول المشترك القروى بذلك إلى مشترك معبدي، يضم مجموعة مشتركات قروية، لتظهر إلى الوجود دولة المدينة، التى تخضع كليـــاً لإلــــه المدينة الأعظم، وبالتالى لنائبه ووسيطه الأرضى، حتى عُدّ هذا الإله سيداً

إقطاعياً متغيباً (لبعض شئونه)، لكنه كان يثبت حضوره باستمرار بما يطلبه من إنتاج أعضاء المشترك المعبدى، من قرابين ونذور وتضحيات وهبات، أدى تراكمها إلى زيادة قدرات الكاهن الحاكم الوسيط، وبدأ يتحول بما يملك من مواد متراكمة وأحياناً نادرة، إلى ملك مطلق النفوذ.

وبمرور الزمن، أخذ الملك يتفرغ للعمل الإدارى والسياسى، لمواجهة المشتركات الأخـــرى التـــى تحولـــت بدورها إلى ممالك،تاركاً مهمة الاتصال بالآلهة لأتباع فوضهم عنه لهذا الغرض، ليصبحوا وسطاء يعقدون معها المحالفات، ويتلقون توجيهاتها ويسكّنون ثائرتها، ويبلغونها برغبات عُبّادها، ومن هنا بدأت تظهر ثلاث طبقـــات متمايزة،هى الطبقة الإدارية أو البيروقراطية ممثلة فى الجهاز الإدارى الحكومى وعلى رأسه الملـــك وحاشـــيته ومعاونوه ورجال جيشه، وطبقة الكهنة، وباقى جماهير الشعب التى تشكل الطبقة الثالثة فى الدولة.

وقد وجد الكهنة بالذات سبيلاً سريعاً للإثراء، من خلال إمساكهم بعنان المزاج الإلهى إن رضاً أو غضـــباً، مما أدى أحيانا إلى اصطدام الكهنة بالملك، مما كان يضطر الملك إلى خلع الإله المزعج، وإعـــلان نفســـه إلهـــاً، بانقلاب سلمى يمسك بزمام الكهنة، وحينها كان نظام حكم المدينة يتحول إلى الشكل الاستبدادى المطلق.

لكن يبدو أن جدل التطور قد توقف بالسومريين عند حدود المدينة، فتحددت ملامح حضارتهم بحدود الدولـــة المدينية، ومن ثم اتسمت هذه الحضارة بخاصية المدن المستقلة، التى لم تعرف الوحدة الشاملة،إلا على يد الغزاة

الساميين اللذين أقاموا الدولة الأكادية، إلا أن نظام المدن المستقلة السومرى، لم يوقف عملية التطور الداخلى لكل مدينة على حدة، فاستمرت عملية النمو الحضارى لكل مدينة تسير فى طريقها قدماً، مع تبادل الفكر والثقافة وأهم المآثر الدينية، وكافة الأساليب الحضارية المتيسرة لها، فيما بينها، وهو ما يعقب عليه (عبد العزيز صالح) بقوله:

وهكذا قطع السومريون أكثر من خمسة قرون من بداية عصر الأسرات العراقي، غابت فيها الوحدة السياسية الكاملة عن آفاقهم.. وذلك على الرغم من أن أهلها فـــى مجموعهم،كـــانوا يحسون تلقائياً بوحدة جنسهم... ويحسون بتقارب مذاهبهم الدينية التـــى شـــجعتهم علـــى أن يتمثلوا أربابهم فى بعض آخروتخيلوا صفات بعضها لبعض آخر[١٠].

ثم يحاول (نجيب ميخائيل) تعليل عدم قيام وحدة سياسية سومرية مركزية كبرى، وهو الأمر الذى أنجزتـــه مصر مبكراً بقوله:

إن الحياة فى وادى الرافدين.. كانت تختلف اختلافاً بيناً عنهـــا فـــى وادى النيـــل، فـــوادى الرافدين أقل دفعاً للوحدة السياسية،ومن ثم كانت هناك الدول المدن التى تأخر توحيدها، وإن لم يقم ذلك دون تطورها، والعراق القديم كان مفتوحاً، بينما كانت مصر مغلقة، أسهم وجود الصحراء على جانبى واديها فى صيانة كيانها وردّ كثير من الهجمات حتى اســتطاعت أن تغلق فى كثير من الأحيان أبوابها، دون الطامحين فيها، أما مجاورات العراق القديم، فأراض خصبة، استطاعت أن تأوى إليها شعوب تهددها، وتعرض أراضيها للعدوان، الذى كان يؤثر على ركب الحضارة، فيعطله أو ينال منه[١١].

---

[١٠] د. عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، الهيئة المصرية العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧، ج١، ص٤٠١.

[١١] د. نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، حضارة العراق القديم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ج٦، ص٤.

ومع ذلك فيبدو أن السومريين قد استشعروا نوعاً من الوحدة

القومية بينهم رغم الفرقة السياسية، وهو ما يمكن أخذه من تأكيد الآثاريين:

إنه ليس هناك شك بأن السومريين كانوا يعتبرون أنفسهم من صنف الشعب المختار..في أسطورة آنكي ونظام العالم،التي تعالج موضوع خلق آنكي للذاتيات الطبيعية والحضارية والعمليات الضرورية للمجتمع المتمدن وتنظيمها، نجده يبارك بلاد سومر بكلمات رفيعة،تكشف أن السومريين يعتقدون بأنفسهم كمجتمع، أو بالأحرى مجتمع مميز ومقدس، متصل بالآلهة اتصالاً أقوى من اتصال بقية البشر بها، بشكل عام[١٢].

بل إنه رغم اعتراف المهتمين بالحضارة السومرية، أن السومريين مجموعة غريبة على المنطقة، فإنهم يزعمونهم أصحاب ثقافة قدر لها السيادة على جميع أجزاء الشرق الأدنى، فيقول (كريمر Kramer): «وتتجلى هذه السيادة الثقافية في عدة اتجاهات:

١- أن السومريين هم الذين طوروا، ومن المحتمل أنهم قد

ابتكروا، طريقة الكتابة المسمارية، التي اقتبستها جميع شعوب الشرق الأدنى على وجه التقريب.

٢- طور السومريون المفاهيم الدينية والروحية، كما أدمجوا مجموعة الآلهة المختلفة على نحو رائع، فكان لهذا الدمج أثره العميق على شعوب الشرق الأدنى، وبضمنهم العبرانيون والإغريق، إضافة إلى نفاذ الشيء الكثير من هذه المفاهيم الروحية والدينية إلى عالمنا المتمدن، عن طريق الأديان السماوية»[١٣].

ويكمن ذلك عند (كريمر Kramer) في أنه قد «طور السومريون خلال الألف الثالث قبل الميلاد، أفكارا دينية

---

[١٢] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص٤١٢.

[١٣] كريمر: الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦١، ص١٩.

ومفاهيم روحية، تركت فى العالم الحديث أثراً لا يمكن محوه، خاصة ما وصل منهـا عـن طريـق الـديانات: اليهودية والمسيحية والإسلام،فعلى المستوى العقلى، استنبط المفكرون والحكماء السومريون، كنتيجة لتأملاتهم فى أصل الكون وطبيعته وطريقة عمله، نظرية كونية، وأخرى لاهوتية، كانتا تنطويان على إيمـان راسـخ وقـوى بحيث أنهما أصبحتا العقيدة والمبدأ الأساسيين، فى أغلب أقطار الشرق الأدنى القديم، وعلى المسـتوى العملـى والوظيفي،طور الكهنة ورجال الدين السومريون مجموعة من الطقوس والشعائر والاحتفالات، الغنيـة بـالألوان والتنوع، التى كانت

تؤدى لغرض إرضاء الآلهة وتهدئتهم،بالإضافة إلى ما فيها من إشباع عاطفي، لحب الإنسـان للمهرجانـات والمشاهد الضخمة»[١٤].

* * *

الآلهة:

وأهم ما يمكن احتسابه للفكر الدينى السومرى فى رأينا، أنه استطاع ــ مبكرا ــ أن يفصل بين الآلهة وبين أشكالها الطوطمية، فغلب على نقوش الآلهة الهيئة الإنسانية، بينما احتفظت الذاكرة بالأصل الطـوطمى كرمـز ينقش قابعا إلى جوار الإله،أو يحمله الإله بين يديه، أو يُرسم على ثوبه، بعكس المصريين الذين لم يتحرروا تماماً من الأصول الطوطمية للآلهة،فجسموا الإله فى الشكل الآدمى مع الاحتفاظ بالرأس الحيوانى الأصلى، ويبدو لنـا ذلك ناتجاً عن الفارق الطبوغرافى بين المنطقتين، حيث كانت مصر مغلقة الحدود، متجانسـة التكـوين جنسـياً وفكرياً إلى حد بعيد، بينما كانت الرافدين بلاداً مفتوحة، تلاحقت فيها أجناس وثقافات متعددة، أدت فـى أحيـان

[١٤]كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص٤١٢.

كثيرة إلى نوع من التجريد المطرد، أدى إلى سلخ الآلهة من جذورها البدائية، وهى ظاهرة نلحظها أيضا في تطويرهم الكتابة إلى

نوع من الخط المجرد، ابتعد بسرعة عن أصله التصويري، بينما ظل الأصل التصويرى فى الكتابة غالبا فترة طويلة على الكتابات الهيروغليفية فى مصر،ولم يتحرر المصريون منه بشكل واضح إلا بعد احتكاكهم بالشعوب الأخرى، وبعد غزوات متعددة لأراضيهم فى نهاية الإمبراطورية المصرية، وسقوط الدولة الحديثة، مما أدى بالهيروغليفية إلى التحرر من التصوير والتحول إلى التخطيط لتتطور إلى (هيراطيقية، ديموطيقية، قبطية) ولاشك لدينا أن هذا الميل إلى التجريد، قد صار خاصية لشعوب شرقى المتوسط الأدنى عموماً، لتشابه الظروف البيئية، وكان دافعاً فيما بعد إلى ظهور الفلسفة اليونانية، التى هى امتداد طبيعى لفكر المنطقة وتعد فى المقام الأول فكراً (أيونياً) مشرقياً، ومن خلال التفوق الفينيقى التجارى والبحرى وما نتج عنه من احتكاك اجتماعى، فى الألف الأولى قبل الميلاد.

ومع ذلك فقد استمرت التعددية المفرطة هى سمة الديانة السومرية، حتى أمسى للفأس إله، ولقالب الآجر إله، وللمسمار إله، ولكل فرد إله خاص به يحميه وفق طموحاته الشخصية، يحابى فيه نزعاته وطموحاته وميوله، إضافة إلى افتراض ربٍ أو ربة لكل ظاهرة طبيعية، كبر شأنها أو صغر، كما افترضوا لأربابهم صوراً بشرية ضخمة،وحياة تماثل حياة البشر،تزاوجوا فيها وتناسلوا وتحابوا وتخاصموا وتقاتلوا، لكنها كانت حياة سرمدية،ذات قدرات مطلقة.

أما عندما يكون وجود هذه الآلهة ضرورياً فى ذاتيات الكون الموكلة بها، فإنها كانت تعيش فى (جبل

السماء والأرض)[١٥]، وإنى أتصور ذلك نوعاً من الفصل بين آلهة عاملة (شغِّيلة) مرتبطة باستمرار بـالظواهر الطبيعية مطّردة الحدوث،ودائمة التأثير المباشر فى حياة الإنسان السومري، وبين آلهة متفرغة للعمـل الـذهنى النظرى وللإدارة فى جبل السماء والأرض، ويحتمل أنها كانت الآلهة الكبرى، والظن عندى أن ذلك راجع إلـى ظهور الكهنة المفوضين للإدارة فى المشتركات الأولى، التى تحولت إلى مشتركات قروية ثم معبدية، مما طبـع شكل المجتمع الإلهي، بما وصلت إليه أحوال المجتمع السومرى اقتصادياً وسياسياً، وكما تفرغ الكهان من العمل البدنى للإدارة، فقد تفرغ مجموعة من الآلهة وتحرروا من العمل الملاصق لعمل الطبيعة الدائم وهو ما تدل عليه أسماء هذه الآلهة، الذين شكلوا مجاميع إلهية أشهرها:

- مجمع الآلهة مقررة المصائر، وعددهم سبعة.
- مجمع الآلهة العظام، وعددهم خمسون إلها[١٦].

وفوق هذه الآلهة جميعاً، كانت عناصر الكون الكبرى، ذات التواجد الدائم الثابت (السماء، الأرض، الهـواء، الماء)، آلهة لها خصوصيتها المتميزة باستمرار التواجد المنظور، إزاء الآلهة الأخرى متغيرة الأحوال، التـى لا تتسم بديمومة التواجد،ونذهب إلى أن ملاحظة السومرى المستمرة لجدل التأثير المتبادل بين الظـواهر الأربـع الثابتة، فى إنتاج الحياة، وضرورة استمرار هذا الجدل لضمان استمرار الحياة، كما لو كانت مهمتهـا الإشـراف على هذه الاستمرارية وتتابعها. أقول: إن هذه الملاحظات قد سوغت للسومرى المتأمل، الاعتقاد أن هذه الظواهر الأربع إنما هى أربع من الآلهة،تكاتفت معاً لتقوم بخلق بقية كائنات الوجود، ومن ثم أطلق عليها (الآلهة الخالقة)، وهي:

---

[١] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص١٥٥.

[١٦] كريمر: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى بغداد، ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧١،ص١٥٥.

- آن AN الإله السماء.
- كى KI أو (جى) GI الإلهة الأرض زوجة إله السماء.
- آنليل AN-LIL الإله الهواء ابن إلهىّ السماء والأرض.
- آنكى AN-KI الإله الماء.

ويرجح (كريمر) أن تكون هذه الآلهة الأربع هى الأعضاء الكبرى فى مجتمع السبع مقررة المصائر، ويكون بقية هذا المجمع إذن هم الآلهة:

- نانا NANA الإله القمر.
- أوتو UTO الإله الشمس وهو ابن الإله القمر.
- إينانا ENANA إلهة كوكب الزهرة[١٧].

وإن كان موسكاتى يجعل من هذه الثلاث الأخيرة أسرة إلهية مثلثة تضم: الأب القمر والأم الزهرة والابن الشمس[١٨].

وهكذا تكوّن مجمع الآلهة السبع مقررة المصائر، من أسرتين ثالوثيتين كل منهما يشتمل على ثالوث (أب وأم وابن)،فشكّلا معاً ستّة من الآلهة، بينما ظل سابعهم (آنكى ـــ الماء) حالة شاذة وسط هذا المجمع، باعتباره ليس عضواً فى أى من الأسرتين الثالوثيتين،وإن كان يكمل الأسرة الأولى لتصبح أربعاً من الآلهة الخالقة، وهو أمر حيرنا من البداية، لكنها حيرة أثمرت عن كشف هام، يعد واحداً من أعمدة هذا القسم من بحثنا.

---

[١٧] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص١٦٣.

[١٨] سبتنيو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربى للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧، ص٧٥.

وحتى نتمكن من الوصول بقارئنا إلى الكشف المأمول، نقف أولا مع الآلهة الأربع وقفة تفصيلية بعض الشيء، نستقى أخبارها

من المصادر، فتطالعنا بأن:

١- آن **AN**: هو إله ذكر،.وهو إله السماء، والكلمة (آن) تعنى أيضاً السماء المنظورة ذاتها، وكانت فى رؤيتهم سقفاً يعلوهم، ثم أصبحت (آن) بالتدريج علماً ورمزاً على الألوهية عموماً، فعادلت ــ بمعنى من المعانى ــ اسماً للجلالة، تدل على ألوهية أى مسمى إلهى وبذلك حملت معنى السيادة والرفعة والسمو، لذلك كان (آن) سيد الآلهة جميعاً، باعتباره فى نظرهم كان الأب الأول لكل الآلهة وسيد الآلهة السبع مقررة المصائر[١٩].

ويقول (كريمر):إن الأسباب التى أدت إلى تَسَيُّد (آن) مجموعة الآلهة السومرية، أسباب غير معروفة[٢٠] .لكننا نتصور وببساطة أن رؤية الرافدى القديم للسماء بفسحتها واتساعها، وتعدد الألوان والأحداث والظواهر فيها مع ضخامة هذه الظواهر، وجسامة هذه الأحداث، ومطرها الذى يشكل للأرض مَنِىّ الحياة، ثم إحاطة السماء

للأرض فى الأفق، وتغطيتها من جميع جوانبها، كل ذلك كان كفيلاً بتصورها بما يلائم عظمة اتساعها ورحابتها وتعدد الإمكانات فيها، مقابل ضيق المساحات المرئية أمامه بشكل مباشر على الأرض، التى مهما بلغت مظاهرها هولاً وغرابة،فإنها لم ترقَ أبداً فى نظره إلى درجة ظواهر السماء، مع أخذنا بالحسبان عدم التماس المباشر بينه وبين السماء، مما جعلها مجهولاً دائماً يقع فى نفسه موقع الجليل، بما له من هيبة ورغبة واحترام وتقديس، فكان أن تصور السماء أعظم الآلهة، وأباً أولاً دائم الاقتدار، بتواصل وديمومة مستمرة، يخصب الأم

---

[١٩] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٠٣، انظر أيضا جان بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٦، وكريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص١٥٧، ود. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص١٤٣.

[٢٠]كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٧٢.

الكبرى (كى KI) الأرض، وهو يحتضنها ليلقى فى أحشائها بدفقات ماء الحياة، ومن هنا ظلت السماء (آن)، وظل الإله (آن) يقع فى الوهم الإنسانى ــ حتى اليوم ــ موقعه القديم، فنتحدث عن الإله مجازاً فنقول: السماء، أو نتصوره قابعاً على عرش فى بيت إلهى فى السماء، أو ننفعل فنقسم أغلظ الأيمان بحق السماء! ولا يبقى عن (آن) الآن، سوى ترجيحنا أن يكون هو نموذج الأب الأول فى مشترك العشيرة البدائى.

٢ــ **كى KI أو جى GI**: وهى إلهة أنثى هى الأرض تعددت أسماؤها وشخصها واحد، فهى كزوجة للسماء الذكر (آن AN) تسمى (أنتوم AN-TUM)[٢١] مؤنث الكلمة (آن AN) وهى أيضا (نينماه أو

نينا ماه NIN-MAH)[٢٢]، والاسم (نينماه) يشير إلى مدلول هذه المعبودة فى الذهن السومري، فهو مركب من ملصقين: (نن NIN) بمعنى السيدة أوالعظمى، أو السيدة العظمى. ولازلنا ننادى الأم، والأم الكبرى (الجدة) باللفظ (نينا)، والملصق الثانى (ماه MAH) أى الأم، وتصبح الترجمة: السيدة الأم، أو الأم العظمى أو الأم الكبرى، كما عرفت (كى) أيضا باسم (نينتو NINTO)[٢٣] وهو اسم يحمل أيضاً معنى الأمومة، لأن (نن = السيدة + تو = تلد) أى السيدة التى تلد، أو السيدة الوالدة، أو إيجازاً: الوالدة. كما سميت أيضاً (أرش ARSH) بمعنى أرض، كما حازت على الألقاب (مامى MAMY) و(ماما MAMA) و(ما MAH)[٢٤]، وكلها تحوى (ميم) الأمومة.

وقد شكلت (كى) مع (آن) فكرة ابتدائية عن نشأة الحياة على الأرض أو ما يمكن اعتباره سفراً بدئياً للتكوين، صادقاً صدق بدائيته، مطابقاً لراسب خبرات الإنسان، وملاحظاته، عن دور مطر السماء أو منىّ (آن) وفعله فى الأم الأرض لتنتج الحياة، لكن هذا

---

[٢١] بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٦.

[٢٢] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٨٣، انظر أيضاً فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٤٦،٢٤٧.

[٢٣] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٨٣.

[٢٤] د. فاضل عبد الواحد: الطوفان فى المراجع المسمارية، أوفست الإخلاص، بغداد، ١٩٧٥، ص٥٤.

السفر يقف عند هذا الحد عندما يبدأ الخيال الإنسانى يتدخل فى صناعة الفكرة، ليأخذ التكوين خطا آخــر أكثــر تعقيداً من بساطة الحقيقة.

٣ ــ **آنليل ANLIL**: وهو إله ذكر، هو إله الهواء وهو الضلع الثالث، فى ثالوث : الأب فيه آن والأم كى والابن آنليل، وعنه يقول (جان بوتيرو):

«آنليل يعنى باللغة السومرية، سيد الريح والعاصفة ومجال عمل آنليل هو الأرض، فهو الذى يسيّر البشر... وقد لقّب السيد[٢٥] ولنلحظ أن الاسم (آنليل) مركب من(آن = سيد أو إله أو رب + ليل وهى مادة ما بين الســماء والأرض من هواء ورياح وسحب)، ويقول (نجيب ميخائيل): ...«إن كلمة آن ليل تعنــى أصــلاً ســيد الــريح والروح، وهو لم يأخذ لقب سيد الأرض إلا فيما بعد..ومعبده هو(بيت الجبل E-KUR)[٢٦]،ويقول (عبــد الحميــد زايد) أن آنليل هو سيد ما بين السماء والأرض،فهو إله الهواء وما يتعلق به،كما لقب أيضا بأبى الآلهة..كما يقود آنليل الآلهة إلى الحرب،فهو يمثل القوة والبطش،فكان آن يرأس الاجتماعات فى مجمع الآلهة وكانت وظيفة

آنليل تنفيذ أحكام هذا المجمع، فآن وآنليل هما العنصران الرئيسيان، وكانت وظيفة آنليل تنفيذ أحكــام هــذا المجمع، فآن وآنليل هما العنصران الرئيسيان فى الدولة،هما السلطة التشريعية والتنفيذية، ..وقد عُهد إلى آنليــل بالمحافظة على ألواح القدر»[٢٧]، ومن ألقابه «سيد جميع البلدان،أبو جميع الآلهة، مقرر المصائر، الذى لا رجعة لقراراته، الذى يمتلك ألواح القدر الذى فصل أباه السماء عن أمه الأرض، خالق الفأس أداة العمل، الجبل العظيم، هذا وكان مقر عبادته فى مدينة نفر، وكان هنالك تقليد سنوي،تذهب فيه بقية آلهة المدن لطلب الرحمة والبركــة

---

[٢٥] بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٧.
[٢٦] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١١٧،١١٥.
[٢٧] د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد.. سبق ذكره، ص١٤٤.

من آنليل لحكام مدن هذه الآلهة،وهو الإله الوحيد الذى اغتصب أنثاه ننليل،فأنجبت منــه القمــر نانـــا»[٢٨]،مــع ملاحظة هامة هى أن رمزه التصويرى كان ذات رمز إله السماء آن.

ويقول (كريمر) إنه «..يوجد فى أقدم التصانيف السومرية المنشورة عدد كبيرمن القطع الأدبية التى نطلــق عليها اسم المراثى، نرى فيها الإله (آنليل) يقوم بذلك العمل البغيض، وهو القيام بإحداث

الدمار وتنفيذ الكوارث والبلايا،التى كانت تأمر بها الآلهة لسبب من الأسباب، وهذا هو السبب فى وصم آنليل بأنه إله شرس مدمر فى كتابات الباحثين القدماء فى الشئون السومرية،ولكن الحقيقة هى أننــا لــو حللنــا التراتيــل والأساطير لاسيما ما نشر منها منذ عام ١٩٣٠، لألفينا الإله آنليل وقد مجدوه بصفته إلهاً رحيماً، يتحلى بــالحنو الأبوى، ويُعنى بسلامة جميع البشر وخيرهم»[٢٩].

وبالاجتهاد يمكننا فهم هذا التضارب فى شخصية آنليل ويمكننا تفسير استطاعته إزاحة أبيه (آن) ليتحول إلى رمز مسلوب السلطان،وهو أمر شائع فى الميثولوجيا الشرقية عموماً، فى قصة الابن الذى يتفــوق علـــى أبيـــه ويسلبه سلطاته، وهو ما يبدو لنا صدى طبيعياً لواقع أحوال الإنسان البدائى قبل استقراره وتحضره، حيث كـــان الأب القوى يظل سيداً أو حامياً للقطيع حائزاً لكل الإناث، حتى يظهر من بنيه ذكر قوى ينافسه السيادة وحيـــازة الإناث، فينازعه سلطانه ويدعوه للنزال، فى وقت يكون فيه لعامل السن دوره، فى إزاحة الأب الكهل، ليحل الابن الشاب القوى محله فى سيادة القطيع والذود عنه، ويتحول هو إلى أب جديد للقطيع، لكن هــذه الســيادة الأبويـــة البدئية، بدأت تفقد سلطانها مبكراً مع التطور الاجتماعى، عندما أصبحت السيادة تحتاج إلى مقومات أكثــر مـــن مجرد الأبوة،أو

---

(٢٨) د. فوزي رشيد: الديانة، المعتقدات الدينية، (ضمن سلسلة كتب تاريخ العراق مع آخرين)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥، ج١، ص١٥٤،١٥٢.

(٢٩)كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٧٣.

القوة الجسدية واستدعت وجود كفايات متعددة في سيد العشيرة، المفوض من مجموعة عشائر مؤلفة من مشترك بدائى، مما أدى إلى ضرورة التحول نحو قانون جديد، فرضته ظروف التجمع الأكبر حيث ساد مجموعة من رؤساء العشائر الآباء، تحول أحدهم إلى أب مفوض للمجموعة العشائرية المتحدة فى مشترك قروى ثم معبدى ليكون همزة الوصل بين الأب القديم الذى تحول إلى إله غائب، وبين أفراد المشترك،أو بين الآلهة عموما وبين الناس، فى شكل كاهن رئيس، متحرر النفوذ من أسر مجلس القبيلة العام.

أقول: عندما فقد الأب البدائى سلطانه فى المجتمع الأكبر، انعكس ذلك على عالم الآلهة، ففقد إله السماء سلطانه الأبوي، المتصف فى الأساطير بالحنو البالغ والشفقة، وظهر ولده آنليل، وقد حدث ذلك على ما يبدو بالتدريج البطىء الذى حدث به فى عالم البشر، حتى صار (آن) مجرد شخصية هلامية مبهمة غامضة فى مجمع الآلهة، وإن ظل محتفظا باحترامه كأب أول خالق، لكن مسلوب السلطات.

وكما تحول الأب المفوض فى المجلس العام بالمشترك البدائى إلى حاكم متحرر النفوذ، تحول آنليل بمفهوم الألوهية من الرحمة إلى الشراسة، يمتلك أقدار الناس وأقواتهم (الذى يمتلك ألواح القدر)، ويتفرغ للعمل الذهنى لتطوير أدوات الإنتاج (خلق الفأس أداة العمل)، وينظم أعمال الناس (يسير البشر)، ويقود الجيوش (يقود

آنليل الآلهة إلى الحرب)، لذلك أصبح (سيد جميع البلدان)، وتوجب (أن تذهب إليه بقية الآلهة لطلب الرحمة) باعتبار الحاكم الذى يمثل آنليل مفوضاً من جميع العشائر المتحدة وسيداً متحرر النفوذ محل الأب البدائي، وهو ما ترك أثره فى تصويره الرمزى، بنفس رمز الأب آن.

٤ ــ **آنكى ANKI** أو **آنجى ANGI**: وهو إله ذكر، يتركب اسمه من ملصقين (آن = السماء + كى = الأرض)، أى (السماء والأرض)، وبترجمة بعض الباحثين (السيد الأرض) باعتبار (آن) تعنى السيادة والجلالة أيضا، فهو

بذلك إله الأرض، لكن هذا يتضارب مع حقيقة ميثولوجية متواترة فى ميثولوجيا البلدان الزراعية، حيث اعتبرت الأرض دوماً إلهة أنثى كمصدر للحياة، كما يتضارب مع حقيقة أخرى هى أن آنكى كان يعد لدى السومريين إلهاً للماء وكان بهذه الصفة إلهاً ذكراً، حيث كان سكان المناطق الخصبة ينظرون إلى الماء كمنـــى للأرض،وســـائل يخصب الأنثى الأرض لتحمل بالزرع.

وسمى آنكى باسم آخر هو (آبسو ABZU) وهو بدوره ملصق من كلمتين (آ A = الماء) + (بســو BZU)، ويترجم الباحثون (BZU) بمعنى البعيد أو العميق[٣٠]، ويقول (نجيب ميخائيل)، إنهم

قصدوا بذلك المياه الجوفية[٣١]، لكن الغريب فى بابه أن هذا الإله، وهو رابع الآلهة الخالقة الأربع، المكونـــة من أسرة ثالوثية (آن، كي، آنليل) مضافاً إليها (آنكى) رغم كونه ليس عضوا فى الأسرة!! ثم لماذا يكون (آنكى) ماء العمق أو المياه الجوفية بالذات، كعنصر إحياء فاعل فى عملية الخلق؟ لماذا لا تكون مياه الأمطار أو الأنهار هى صاحبة هذا الدور الخالق، فى بلد يغمره النهران العظيمان: دجلة والفرات؟.

الحقيقة أنى وقفت مع (آنكى) أو (آبسو) وقفة طويلة، انتهيت منها إلى اعتباره فعلاً ذكراً هو الماء، لكنه ماء إلهى أو هو منى الإله (آن) السماء، الذى زرعه فى رحم الأم الأرض (كى).وهو ما يفسر لنا تركيب اسمه مـــن السماء والأرض معاً (آن + كى)، فهو الفعل المشترك لأبوى الحياة، هو ماء الحياة الذى استقر فى رحم الأرض لتظل دائما مصدراً مستمراً للحياة مما يفسر غياب (آن) وتواريه، بعد أن قام بالمطلوب منه دفعة ومرة واحدة،ثم ترك لمائه أن يفعل فعله المستمر فى إنتاج حياة مستمرة، وهو أيضاً ما يفسر لنا تأليه (آنكى)كإله خالق،رغم كونه ليس عضواً فى الأسرة الخالقة الثالوثية، فهو خالق باعتباره منى (آن)،أو هو روح قدسية منه حلت فى حشا الأم الأرض (كى)، ويلتقى ذلك مع اعتقاد السومريين أن مياه الأنهار تنبع من مياه العمق تحت الأرض، وهـــو مـــا

---

[٣٠]كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٧٨.
[٣١]د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١١٨.

يشككنا فى

ترجمة (آبسو) بماء العمق فكلمة (آبسو)، نعم، تحمل معنى الغور والبعد، لكنها مع فهمنا للأمر تتضح، فتصبح (المياه الكامنة فى الرحم). وأقترح الترجمة الأدق وهى (السائل المخصب)، ويدعمنى فى ذلك أن الإله (دومو زى آبسو DUMU-ZI-ABZU) يترجم اسمه إلى (الابن الحقيقى لمياه العمق)[٣٢]، علماً أنه كان إلهاً للخصب وموكلاً بإخصاب الأرض، إضافة إلى أن (آنكى) باسم (آبسو) كان يعد خالق الزرع والحياة والبشر، أو نصياً (الذى خلقت يداه البشر)[٣٣]وهو (خالق العالم)[٣٤]، وإن تحليلنا هذا، وترجمتنا تلك، توضح لنا: لماذا أدخله السومريون ضمن الآلهة الخالقة،رغم كونه ليس فرداً فى الأسرة الثالوثية الخالقة، وهو ما ينقلنا إلى بحث الدور الذى قام به كل من الآلهة الأربع، فى عملية الخلق.

التكوين الكونى

عندما لم يكن العلم بجغرافية الأرض قد اتسع بعد، تصور السومريون الأرض قرصاً منبسطاً هو الدنيا، محدد بحدود لا تتجاوز الهند شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً، وبلاد الأناضول والقوقاس شمالاً، والخليج العربى وبعضاً من المحيط الهندى، وجزيرة العرب، جنوباً.

ويقع تحت هذا القرص، عالم تحت أرضى سفلى، هو مقر الأموات، ويلى مقر الأموات مياه العمق، التى اتفقنا على ترجمتها بـ (السائل المخصب آبسو ABZU أو آنكى ANKI)، ولو صعدنا على وجه القرص الأرضى، نجد هناك قرصاً آخر يعلوه هو السماء، مقر (آن) وكثير من الآلهة، وهو قرص محدّب فى شكل قبة

[٣٢]د. فاضل عبد الواحد: عشتار ومأساة تموز، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ١٩٨٣، ص٤٠،٣٦.
[٣٣]د. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد.. سبق ذكره، ص١١٩.
[٣٤]بوتيرو: سبق ذكره، ص٣٨.

صلبة تحيط بالقرص الأرضى من جميع جهاته، ثم ما بين القبة السماوية والقرص الأرضى، يمــرح الــريح أو الهواء أو الروح أو الجو أو الأثير، تلك المادة التى أسموها (ليل LIL)،وكل هذا فى مجموعه يقف راكداً فى بحر لامتناهٍ يحيط بالكل من جميع الجهات، وهذا البحر اللامتناهى كان ــ فى اعتقادهم ــ منبع كل الوجــود ومادتــه الأولى[٣٥]، وهذا هو كل شيء، كل الكون: منظوراً وغير منظور.

ورغم أنه لم تصلنا عن السومريين نظرية متكاملة، توضح لنا آراءهم فى كيفية وجود العالم ونشــأته، فــى الآثاريات المكتشفة حتى الآن على الأقل،فإنه يمكن استخلاص سفر تكوين سومرى، من خلال دراســة متأنيــة للنصوص المتفرقة في أساطيرهم وآدابهم المتعلقة بالخلق، مع أخذنا بالحسبان أن هذه الأساطير ليست بالســذاجة التى تبدو ظاهرة فيها، إنما هى لغة لها خصوصيتها ومفرداتها المتميزة، واصطلاحاتها الخاصة، لتبليغ ما تريــد من حقائق مقررة فى نظر أصحابها مع اعتبارنا لمراحل التطور التدريجى التى سار فيها الفكر الإنسانى بادئاً من مثل هذه البدايات الأولى.

وكغيرهم من الشعوب، تأمل السومريون فى طبيعة الكون وأصله، ونشأته، فظهر لديهم فى غضون الألــف الثالث قبل الميلاد، طائفة من المفكرين والحكماء حاولوا إشباع هذا الفضول المعرفي، بوضع إجابات مُرضــية، للتساؤلات التى أثارها تأملهم فى الكون وطبيعة الأشياء، دفعت الآثاريين إلى حد الزعم أن الســومريين وصــلوا إلى آراء ومعتقدات ومبادئ، أصبحت أساساً لعقائد شعوب الشرق الأدنى[٣٦]، ودفعت بنا نحن إلى جمع شــتاتها من الأساطير والملاحم، لتعطينا سفرا سومريا للتكوين، يمكن أن تتضح سماته تدريجيا مع بحثنا هذا.

وسعيا وراء هدفنا هذا، نجد فى اللوح الذى يعدد أسماء الآلهة السومرية تقريراً لمبدأ يقول: إنه فــى البــدء

---

[٣٥] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص١٥٠،١٤٩.

[٣٦] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٥١.

كانت (نمو NAMU)، وقد عبّر الخط المسماري عن (نمو) بالمقطع الصوري الذى يعبر عن البحــر، ووصــفت (نمو) بأنها الأم التى ولدت السماء والأرض، وهو ما يصور لنا الوجود قبل التكوين كمحيط أو غمر من المــاء الأولى الأزلى،وهو تصور غالب على ثقافات الشعوب القديمة التى اعتقدت بخروج الآلهة من محيط عظيم، كان هو الوجود الأول قبل أن توجد كائنات الطبيعة.

وقد فسرت مدرسة التحليل النفسى انتشار نظرية الميلاد المائى لدى الشعوب القديمة، باعتبارهــا انعكاســاً لذكرى كامنة فى لاشعور الإنسان، حول حالة الجنين فى الماء الرحمى للأم، سابحاً فــى بحــره الأول،ويــذهب بعض الباحثين مثل (فراس السواح) إلى تفسير ميلاد الأرض والسماء من البحر الأول، بأنه وسط الماء ظهــرت جزيرة يابسة على هيئة جبل، قبته السماء وقاعدته الأرض[٣٧] والسماء هى ما عرفناه باسم (آن AN إله ذكــر)، والأرض هى ما عرفناها باسم (كى KI أو جى GI إلهة أنثى)، وأنه نتيجة التزاوج بين القبة (آن) والقاعدة (كى) جاء الابن الإلهى فى أول أسرة ثالوثية (آن ليل)، والاسم الإلهى (آنليل) ملصق كما أسلفنا من كلمتين (آن = لفظ جلالة + ليل = مادة ما بين السماء والأرض) ذلك الإله الذى شب مبكراً

عن طوقه، ففصل أباه عن أمه الأرض، ورفع الأب إلى الأعالى (سماء)، وحط بالأم إلى الأسفل (الأرض). وقد جاء ذلك متفرقاً مشتتاً فى عدة أساطير، نقتطع بعضا مما جاء فيها، مثل أســطورة خلــق الفــأس (ترجمــة كريمر)،التى تستهل بمقطع يقول:

الرب الذى يملك حقاً

هو الذى أظهر للعيان

الرب الذى لا يتبدل فى أحكامه آنليل

---

(٣٧) السواح: مغامرة العقل الأولى، دارة الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٧.

الذى يجلب البذور إلى الأرض ليزرعها

تولى برعايته فصل السماء عن الأرض

تولى برعايته فصل الأرض عن السماء[٣٨].

إلا أن (فوزى رشيد) الباحث العراقى فى السومريات، يعطينا ترجمة أخرى لذات المقاطع، فيقول:

السيد الإله آنليل

قد جعل كل ما هو نافع، يبدو ناصعاً

السيد الذى تقريره للمصير لا يمكن أن يتغير

قد أسرع لفصل السماء عن الأرض

قد أسرع لفصل الأرض عن السماء[٣٩].

وفى ملحمة أخرى، لم يتم التعرف على عنوانها بسبب ما أصابها من تلف، اصطلح على تسميتها (KAR.٤-Mathos)، جاءت أبيات تقول:

عندما فصلت السماء عن الأرض

بعدما كانتا متصلتين

ظهرت الإلهة الأم

وبعدما وضعت الأرض وثبتت فى مكانها

وبعدما وضعت الآلهة قواعد السماء والأرض

---

[٣٨] كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٦٦،٦٥.

[٣٩] د. فوزي رشيد: خلق الإنسان فى الملاحم السومرية والبابلية، مجلة آفاق عربية، بغداد، آيار ١٩٨١، ص١٧.

وبعدما نظمت الآلهة الجداول والقنوات وثبتت شواطئ دجلة والفرات

جلست الآلهة :

آن

آنليل

أوتو

آنكى[٤٠]

وقبل أن نمضى فى استقصاء قصة التكوين السومرية من

المتفرقات المتناثرة، نقف هنيهة مع ما أسلفنا ذكره،لنحدد الأمور بشكل أقرب إلى الدقة والوضوح، فنقول:

إن الاجتهاد فى تفسير خروج السماءوالأرض من البحر الأول (كما ورد عند الباحث سـواح)، علـى أنـه خروج لجزيرة أو جبل من الماء الأول، قبته السماء وقاعدته الأرض، هو اجتهاد لا مبرر له، كما أنه لا سند له فيما بين أيدينا من ملاحم وأساطير، وكل ما وصلنا هو إشارات عامة عن اعتقاد بوجود محيط ماء أزلى، ومنـه كانت السماء (آن) والأرض (كى)، ومنهما جاء (آنليل) ليفصل بينهما، ولا شىء زيادة على ذلك فى هذا الجـزء من التكوين السومرى ومن هنا أتصور الفهم الأصح، هو أن هذا المحيط البدئى كـان ذكـراً وأنثـى فـى ذات الوقت،أى أنهم تصوروه كائناً لديه قدرة التوالد الذاتى، فكان فيه الماء المذكر، والماء المؤنث، وهو مـا سـتؤيده قصة التكوين الأكادية والبابلية،التى سنفصل القول فيها فيما بعد، بعدما عثر عليها شبه متكاملة، ويزعم الباحثون أنها أخذت مادتها وتفاصيلها عن التراث السومرى، فأكدت القصة الأكادية أن البدء كان ماء ذكر ومـاء أنثـى، أنجبا سلسلة كيانات الوجود على

[٤٠] د. فوزي رشيد: الموضع نفسه.

التوالى[٤١]، وهو ما يدعم فهمنا المبدئى الحالى للتكوين السومرى.

ونتيجة لتلاقح هذا الكائن المذكر المؤنث مع ذاته، أنجب كياناً جديداً هو (ليل)، الذى ترجم بمعنى الهواء، ورأى أنه يحمل فى اسمه أيضاً معناه الذى حملته كل اللغات السامية بما فيها العربية، بمعنى الليل أو العتمة، وبإضافة اسم الجلالة السومرى (آن) يصبح (آنليل AN-LIL)،وفى اللغات السامية بدءاً من الأكاديين الذين حلوا محل السومريين فى الرافدين يحلّ اسم الجلالة السامى (إيل أو إل EL) محل اسم الجلالة السومرى (آن)، فيصبح (آنليل) هو (الليل EL-LIL)[٤٢].

ويساعد على فهمنا هذا،أن (نانا NANA) إله الليل وهو القمر متولد أصلاً فى المفاهيم الرافدية من الهواء، وتؤكد الأساطير الرافدية أن القمر ابن (آنليل)، ومن هنا نعتقد أن الهواء والليل حملا معنى واحداً لدى السومريين.

وهكذا جاء الهواء أو الليل أو العتمة أو الظلمة (آنليل)، ليفصل فى الغمر أو البحر الأول (نمو) بين مياه ومياه، فرفع المياه الذكر إلى الأعلى لتصبح سماء وحط بالمياه الأنثى إلى الأسفل لتصبح أرضاً وفى ذلك ما يفسر لنا اعتبار الإله (آنكى ANKI) إلهاً للماء، كما يلتقى مع تصور الأقدمين للسماء كبحر علوى، تهطل منه الأمطار والسيول، عندما تفتح أبوابه بماء منهمر.

وبذلك تمكن (آنليل) من أن يحدد فى الماء الأول بين ماء ذكر وماء أنثى، ويفصلهما عن بعضهما، حدد لكل

---

(٤١) فى قصة التكوين البابلية Enuma Elish (وكان يراد بها تمجيد مردوخ كبير آلهة بابل بحسبانه خالقا للكون) جاء القول: إنه فى البدء لم يكن فى الوجود سوى محيط من الماء شاسع، اختلط فيه الماء العذب (آبسو)، بالماء المالح (تيامة) التفاصيل يرجع إليها فى موسكاتى، سبق ذكره، ص٨٥،٨٣.

(٤٢) من المعروف لدى الباحثين فى تاريخ الديانات وفى الميثولوجيا بشكل عام أن (إل) أو (إيل) يعد كبير الآلهة السامية على اختلاف مواطنها، بما فيهم اليهود وقد ورد اسمه فى التوراة مرافقاً للعهد الإبراهيمي حتى نبوة موسى، كما ورد ملصقاً فى أسماء الأعلام، لآلهة أدنى منه شأناً تحولت مع التطور إلى (الملائكة)، كما فى أسماء عزرائيل، جبرائيل، إسرافيل، ميكائيل ...إلخ.

منهما هويته وذاتيته وشخصيته المستقلة، وهو ما يمكن فهمه من ترجمة كريمـــر الســـالفة (هـــو الـــذى أظهـــر للعيان)،والتى حاول (فوزى رشيد) أن يجعلها أوضح فى ترجمته لنفس النص(قد جعل كل ما هـــو نـــافع يبـــدو ناصعاً)، أى واضحاً ومحدداً ومستقلاً بشخصه، وأتصور أنه حتى (يظهر للعيان) ويجعل كل ماهو نـــافع (يبـــدو ناصعا)، كان لا بد من عمل آخر هو أن يحيل الظلمة التى على وجه الغمر البدائى إلى ضياء، يظهـــر للعيـــان ويجعل المرئيات ناصعة واضحة، لذلك جاء فى زعم (كريمر) أن (آنليل) هو الذى جاء بالإله الشـــمس (أوتـــو AUTO)، ولعل أوضح تأييد لفهمنا هذا ما سجلته نهايـــة المقـــاطع التـــى أوردناهـــا مـــن أســـطورة (KAR.٤-METHOS)، أقصد:

وبعد ما وضعت الآلهة قواعد السماء والأرض

جلست الآلهة:

آن

آنليل

أوتو

آنكى

ويظهر هنا (أوتو) الشمس،مقروناً بظهور الكيانات الكبرى فى الوجود، ويأتينا الإله (آنكى) إله الماء، بـــديلاً عن (كى) الأرض ضمن الأربعة الخالقة التى عرفناها، والتى اختفت منها فى هذا النص الإلهة (كى)، مما يوحى بما زعمناه، حول حسبانهم الأرض كانت أصلاً مياهاً، انفصلت عنها مياه السماء، ثم وبعد عناء عمليـــة الخلـــق الكبرى تلك، جلست الآلهة على عروشها، أو استراحت، أو استوت.

التكوين الكائني:

مع أسطورة (جلجامش وإنكيدو والعالم السفلى) نتابع بحثنا عن حقائق سفر التكوين السومرى، فيوقفنا مقطع واضح فى مقدمتها

يقول:

بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض

بعد أن انفصلت الأرض عن السماء

بعد أن عين اسم الإنسان

بعد أن أصبحت السماء بحوزة (آن)

بعد أن أصبحت الأرض بحوزة (آنليل)(٤٣).

ونفهم من ذلك، أنه بعدما انتهى (آنليل) من فصل السماء عن الأرض وبعد ما نظم كونه، وبعدما تقرر خلق البشر على الأرض (بعد أن عين اسم الإنسان)، اتحد (آنليل) بأمه الأرض، بعد أن أزاح أباه، وهو ما يلتقى مع فروض مدرسة التحليل النفسى، فى رغبة الابن إزاحة الأب والاستيلاء على الأم، خاصة أن أفعال (آنليل) الخالقة تتوقف عند هذا الحد،ولا يظهر له دور فى عملية خلق الإنسان، فيما تحت أيدينا من نصوص، كما لو كان تحقيقاً لرغبة موقوفة التحقيق والنتيجة، فلا هو ينجب من أمه الأرض، ولا هو يعاشرها أصلاً، (كما لو كان تحقيقاً لفكرة التابو والتحريم ضد الرغبة)، إضافة إلى أن النص: (بعد أن أصبحت الأرض بحوزة آنليل) يلتقى مع ما سبق وافترضناه فى اقتران ظهور (آنليل) على سائر الآلهة،أو على الأب (آن)، ببداية سلطة الحاكم الكاهن فى

(٤٣) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص٦٣.

المشترك المعبدى، (بعد أن أصبحت الأرض بحوزة آنليل).

وفيما يتعلق بخلق الإنسان هناك أسطورة أخرى تقول: إن الأرض أنجبت الزرع والحيوان والإنسان،خرجوا من طينها كالدود والحشيش، ثم تصوّر هؤلاء البشر تصويراً يكاد يعطيها مشروعية علمية فتقول:

البشر الأول لم يعرفوا أكل الخبز بعد

يسيروا على أيديهم وأرجلهم

كالخراف يعلفون الحشائش

ومن القنوات كانوا يشربون الماء آنذاك

فى المكان الذى كانت فيه الآلهة فى معبدها

التل المقدس.. المعبد..

المكان الذى تأكل فيه الآلهة الخبز(٤٤)

(فهل كان هذا النص تسجيلاً لقصة بشر تطوروا وسط بشر ظلوا على حالتهم الحيوانية؟ ربما).

لكن هناك نصاً آخر، يروى قصة أخرى لخلق الإنسان وجد منقوشا على لوحين مكررين لنص واحد، جاء أحدهما من مدينة (نفر) وهو حالياً فى جامعة بنسلفانيا، والآخر محفوظ فى متحف

اللوفر، يقول:

الأم الأولى نمو تأتى إلى آنكى

(اتفقنا على ترجمة آنكى:السائل المخصب آبسو)

---

(٤٤) د. فوزي رشيد: خلق الإنسان.. سبق ذكره، ص٢١.

وتخاطبه: قم يا بنى من فراشك

واعمل ما هو حكيم لائق

اصنع عبيداً للآلهة

وعساهم أن يضاعفوا من عددهم

فتدبر آنكى الأمر وقال لأمه نمو:

يا أماه: إن المخلوق الذى نطقت باسمه موجود

فاربطى عليه صورة الآلهة

اعجنى لب الطين الموجود فوق مياه العمق

(اتفقنا أن ماء العمق آبسو السائل المخصب)

واجعلى الصانعين المهرة يكثفون الطين

وعليك أنت أن توجدى له الأعضاء والجوارح

وستعمل ننماه (الأرض الأم أو السيدة الأم)

الأم الإلهة

من فوق يديك

وستقوم بجانبك إلهة الولادة

(يبدوا أنها ننماه ذاتها)

وستربط ننماه عليه صورة الآلهة

إنه الإنسان(٤٥).

---

(٤٥) كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص١٩٩.

ونفهم من هذا النص أن الذى يجب أن ينسب إليه فعل خلق الإنسان هو الإله (آنكى)، بوصفه سائل الخصب أو منى (آن) مشخصاً فى إله وأنه لم يفعل أكثر من تلقيح طين الأرض (اعجني لب الطين الموجود فوق مياه العمق)، وأفضل ترجمتها (اعجني له الطين وسيكون فوقه آبسو المنى) خاصة أنه رغم طلب الأم الإلهة من (آنكى) القيام بخلق الإنسان، لا نجد له دوراً سوى ذلك، لأن الأم الأرض (ننماه)، الوالدة (ننتو)، هى التى عملت الطين (وستعمل ننماه الأم الإلهة من فوق يديك)، ثم إنها هى التى صورته فى هيئة الإنسان على شبه الآلهة (فاربطى عليه صورة الآلهة)، ومن هنا خلقت الآلهة الإنسان على شبهها ومثالها، ويعقب (كريمر)، على ترجمته للنص السالف بقوله: «إن المفكرين السومريين.. اعتقدوا اعتقاداً جازما بأن الإنسان صنع من طين، وأنه خلق من أجل غرض واحد فقط، ذلك هو أن يعبد الآلهة ويخدمها بتزويدها بالطعام والشراب والمسكن ليتوافر لها وقت الفراغ لأعمالها الإلهية»[٤٦].

ولنلاحظ هنا كيف استطاع هؤلاء المفكرون، وهم الكهان، وهم الحاكمون، أن يحققوا فائض إنتاج ملائم بين أيديهم، مقابل تفرغهم لإدارة المشترك المعبدى، والاتصال بالآلهة، باعتبار ذلك مسألة

قدسية تتمثل فى تزويد الآلهة بالطعام والشراب والمسكن، أو بالقرابين تدخل من فائض إنتاج الأفراد إلى ملكية خاصة بالآلهة والكهنة، إضافة إلى المسكن الفاخر للآلهة(المعبد)، الذى كان فى واقعة قصراً سكنياً وإدارياً للكهنة.

وقد حاول (بوتيرو) تعليل إصرار أهل سومر على فكرة خلق الإنسان من مادة الطين بالذات، بقوله: «إن هذا التمثيل والصنع من الطين لأجسام البشر الأوائل، يعتبر صورة طبيعية جداً، فى بلد يلعب فيه الفخار دوراً

[٤٦] كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص١٩١.

كبيراً، حيث نجد صنع التماثيل من الطين الفخارى بشكل إنسان، عملاً منتشراً بصورة واسعة»[٤٧].

أما نحن فنعتقد ببساطة، أنه كان يكفى للسومرى أن يلاحظ الطين وما ينشأ فيه من حياة (فطر، نبات، ديدان... الخ) حتى تنشأ لديه قناعة أن هذا هو مصدر ومنشأ الحياة عموما،ولما لم يكن لديه شاهد عيانى على خروج إنسان من الطين فجأة دفعة واحدة، كالزرع أو الدود، فقد اعتقد أن ذلك قد حدث بنوع من التشكيل الفخارى لأجداده الأوائل.

وبالبحث عن التسمية التى أطلقها السومريون على هذا المخلوق الطينى نجد الاسم (إنسى ANZI)وهى فى تحليلنا تعنى مثيل أو شبيه

الإله (آن)، باعتبار (سى ZI) تعنى الشبيه أو الحقيقى،ويقول (حسن ظاظا) إن الاسم (آنسى) قد تخلف فى كل اللغات السامية للدلالة على الإنسان، وأن مؤنثه كان يتأتى بقلب السين إلى (ش) فيصبح (آنشى)، أو إلى (ت) فيصبح (أنتى) أو (ث) فيصبح (أنثى) كما فى العربية وجمعها (إناث)[٤٨]،لكن (كريمر) يشير إلى أن الاسم (إنسى) كان اللقب الذى يعرف به ملوك المدن السومرية[٤٩]، ونعتقد أنه لا خلاف، فالأمر راجع إلى تعظيم الملك باعتباره أباً أولاً للمشترك المدينى الذى كانت تدين فيه كل عشيرة بالعبادة لأبيها، الذى تمثل بتجميع العشائر فى مدينة فى شخص الملك، فأصبح هو أب الجميع الأول (إنسى) وكان يلقب أيضاً باللقب (لوجل)[٥٠]،أى الرجل العظيم، أو ذا الجلال، ونظنها الأصل فى الكلمة الدالة على مذكر الإنسان (رجل).

لكنا نعتقد أن مؤنث الكلمة (إنسى) السومرية، ليس (أنثى) أو (أنتى)، لأن (إنسى) مركبة من ملصقين هما (آن = الإله أو السيد + سى)، وبما أن مؤنث (آن = سيد) هو (نن = سيدة)، فإن مؤنث (إنسى) يكون (نن سى)

---

[٤٧] بوتيرو: سبق ذكره، ص١١٠.
[٤٨] د. حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، مطبعة المصرى، الإسكندرية، ١٩٧١، ص١١.
[٤٩] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص٤٦.
[٥٠] ظاظا: سبق ذكره، ص٣٤.

أو (ننسى)، وبحسبان ما أشار إليه (ظاظا)

يسهل أن تتحول (ننسى) إلى (ننشى) و(ننتى) بشكل خاص، وقد ورد الاسم (ننتى) فى أسـطورة ترجمهـا (كريمر)، مما يؤكد استخلاصنا هذا، وقد جاء هذا الاسم فى أسطورة تقول إن (نن تى) إلهة خُلقت أصلاً لغرض خاص جداً، هو تمريض وعلاج الإله (آنكى) عندما أصابه المرض فى واحد من أضلاعه، والضلع بالسـومرية هو (تى)، لذلك سميت الإلهة الممرضة (نن تى) أى (سيدة الضلع)، ويعقب (كريمر) على ذلك تعقيباً يكاد يـوعز لنا فيه بحل أحجية خلق حواء من ضلع آدم، التى وردت فى الديانات السامية، حتى يكاد يقنعنا أن نصوص سفر التكوين فى التوراة، قد أخذت ما جاء فى الأسطورة السومرية بشكل شائه، بعد مرور زمان نُسى معه الأصـل، ولم يبق سوى سيدة الضلع أو السيدة الضلع، فخالوا الأنثى الأولى مخلوقة من ضلع الإنسان الأول، وسقط كاتب هذا الجزء من التوراة،فى الشرك السومرى، ففسر حواء التى تدل على الأنثى الأولى فى اللغات السـامية بأنهـا مأخوذة من «تلك السيدة التى تحى أى التى تسبب الحياة»[٥١]. وهو ما تعنيه أيضاً الكلمة (تى)، لأن (تـى) تـدل على الضلع عندما تكون اسماً، لكنها كفعل تعنى (أحيا)، أو جعله (يحيا) ويصبح اسم (نن تى) أو (ننتى)، السـيدة التى تحيى[٥٢].

وأصر كريمر على إفهامنا أن التوراة قد أحدثت خلطاً ناتجاً عن سوء فهم للتراث السومرى، بـين (ننتـى) كسيدة للضلع مهمتها شفاء ضلع (آنكى)، وبين (ننتى) بمعنى السيدة التى تحيى،لأن (تى) تعنى (أحيا).

ومع حفظنا لثقل (كريمر) وتقديرنا له كمصدر غزير للسومريات، فنحن ننحو منحى آخر فى تصورنا لمـا

(٥١) تقول التوراة: «ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حي، تكوين٣-٢٠».
(٥٢) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص٢٤٤،٢٤٣.

حدث، فإذا افترضنا أنه قد حدث خلط فعلاً، فقد كان فى الكلمة السامية (حواء) من الفعل السامى (أحيا) وهو فعل له اشتقاقات عدة، منها(حوا) أى استدار حول الشىء و احتواه، كحمل الأم لطفلها فى استدارة بطنها ،و (حيــا)و هو الفرج و من هنا يصبح الفعل (أحيا) ،هو إخراج الحياة المحوية فى البطن من الحيا،وبعد أن تعاملنا مع الاسم (إن تى) كمؤنث لــ(آنسى) و انتهينا إلى وجوب تصحيحه إلى (نن تى) ،فإن قمنا بالاشتقاق منها على الطريقــة السامية فى (حواء) من (حيا)، فستصبح (ننتى) هى (ننتو) ،وهو الاسم الذى عرفناه لإلهة الــولادة الســومرية و ترجمته الحرفية (السيدة التى تلد) .

أما لوافترضنا أنه لم يحدث هذا الخلط في التوراة، فسيكون هناك خطأ ما فى ترجمة الأســطورة الخاصـــة بخلق ممرضة ضلع (آنكى)، ونأسف لأن أصولها ليست بين أيدينا ،وفى مثل هذه الحالة كان يمكننا افتــراض أن (ننتى) كانت أنثى خلقت من ضلع الذكر، وليكن (آنكى) كما قال (كريمر) وليكن، (آنسى) بالفرض. وأنـــه كـــان يعانى من مرض فى ضلعه، كان انتزاعه منه كفيلاً بشفائه ، وعليه

لا تكون (ننتى) إلهة وليست أنثى بشرية، فهو ما لا يتناقض مع قوانين التطور الفكرى والاجتماعى، التى عبدت الأسلاف كآلهة ذكوراً وإناثاً.

ولا يفوتنا أن نشير إلى اختصاص الأم الأولى بلقب آخر فى السومرية هو (مونوس)،التي هي فيمــا نظـــن الأصل فى الكلمة السامية (مومس) التى انحدرت إلى العربية (مومس)، للدلالة على المرأة التى لا تعرف رجلاً واحداً كما لو كان فى اللغة خاصية الحفريات ، فاحتفظت لنا بكلمة ذات معنى حفري سحيق،لتشير إلـــى عصـــر كانت فيه المرأة مشاعاً فى المجتمع الأمومى أو النظام الغابر.

لكن أغرب ما فى علاقة الفكر الدينى السومرى بالفكر الدينى السامى، ولعله ليس أغرب إنما أقــرب إلـــى طبيعة الأمور،هو ذلك الختم الأسطواني الذى كشف عنه مؤخراً ،ويصور ذكراً وأنثى، بينهما نخلة، وخلف الأنثى تدلت حية، رأسها بجوار رأس الأنثى، بينما تمد هذه الأنثى يدها فى شكل دعوة للذكر الجالس قبالتها، ليتناول من ثمار النخلة،ولنتذكر الآن الارتباط اللغوى بين الحية، و بين حيا الأنثى (فرجها)، وبين الحياة، (فالأنثى مصـــدر للمواليد، للحياة) ، وبين التسمية (حواء) ويبدو أن هذا الارتباط المتوارث، كان ناتج تصور الأقدمين أن الحيـــة دائمة التجدد، ودائمة الحياة،عن طريق مشاهدتهم لها تنسلخ من جلودها العتيقة لتخرج بجلود جديدة زاهية ، فـــى حركة تشبه خروج الجنين من حيا الأم ، و لعل ذلك يفسر لنا الارتباط العجيب فى العقل القــديم ، بـــين المــرأة كمصدر

للحياة باستمرار ، و بين الحية التى تتجدد و تولد دائماً بانسلاخها من جلدها ، و بين تصور كليهما (المـــرأة – الحية) كمصدر للخبث و الأذى؟!.

الخطيئة والسقوط

رغم أنه كان للآلهة معابدها، التى كانت فى الوقت نفسه مسكناً لها، ومركزاً إدارياً للمشترك المعبدى، ومحل إقامة لكبير الكهنة وبطانته، أطلق عليها اسم (إى E)،فإن هذه المعابد لم تكن مقاراً دائمة للآلهة، قدر مـــا كانـــت بقاعاً أرضية مقدسة، تلتقى فيها الآلهة بكهنتها، لتفسير النذر أو قبول القرابين، أو لإصدار قرارات تتعلق بـــأمور مستعجلة، بينما كان مقرها الدائم كما جاء فى الأساطير هو جبل السماء والأرض. أما أين هذا الجبل؟ فهو ما لا تجيب عنه المدونات الموجودة بشكل واضح، لكن يمكن الاستنتاج من مجموعة وثائق وأساطير، أنه كـــان فـــى

مكان يدعى (دلمون DILMOUN) حيث وردت كمكان تجرى فيه أحداث عظام، بين الآلهة السومرية، فظهـرت (دلمون) كما لو كانت مسكناً دائماً للآلهة، وفى مجموعة أخرى من الأساطير تبدو (دلمون)كما لو كانت مسـكناً وموطناً للإله خالق البشر (آنكى) أو (آنسى)، إذا اعتبرناه أبا البشر الأول، وأنه أنجب هناك عدداً من الآلهة[٥٣].

وننفرد نحن فى بحثنا هذا بزعم يدعمه ما تحت أيدينا من وثائق، هو أن (دلمون) كانت المكان الذى قامـت فيه الآلهة بخلق أول بشر على الأرض، فقد وصفت هذه المآثر (دلمون) بأنها:

الأرض دلمون هى الموطن الطاهر

الأرض دلمون هى المحل النظيف

الأرض دلمون هى الأرض المشرقة

هو ذلك الذى اضطجع وحده فى دلمون

المحل الذى اضطجع فيه آنكى مع

زوجته[٥٤]

* * *

فى دلمون لا ينعق الغراب الأسود..

ولا يصيح طائر الأندو (الحدأة) ولا يصرخ

ولا يفترس الأسد

---

[٥٣] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص٤٠٧.
[٥٤] كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٨٥.

والذئب لا يفترس الحمل

ولم يعرفوا الكلب المتوحش الذى يفترس الجداء

ولم يعرفوا (خرم بالنص) الذى يفترس الغلة

ولم توجد الأرملة

والطير فى الأعالى (خرم بالنص)..

والحمامة لا يحنى رأسها

وما من أرمد يشتكى ويقول عينى مريضة

ولا مصدوع يقول فى رأسى مرض الصداع[٥٥]

وامرأة دلمون العجوز لا تشكو من الشيخوخة

ورجل دلمون الشيخ لا يتبرم من كبر السن[٥٦].

أما السر فى كون (دلمون)، أخذت شكل المدينة السعيدة الفاضلة فيرجع إلى حلول الإله (آنكــى) فيهــا[٥٧]، وتقول أسطورة (آنكى وننهور ساج ENKI & NIN HURSAG) التى بدأت بوصف (دلمــون) كمــوطن طــاهر نظيف مشرق، يسوده السلام والأمن والطمأنينة: إن الإله (آنكى) حل فيها، وأمر الإله (أوتو) أن يملأهــا بالمــاء العذب، لكونها كانت تفتقده، وعند ذلك أصبحت:

مدينتها تشرب الماء الوفير

---

(٥٥) كريمر: من ألواح.. سبق ذكره، ص٢٤٤.
(٥٦) كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٨٦.
(٥٧) د. زايد: سبق ذكره، ص١١٨.

دلمون تشرب ماء الرخاء

آبارها ذات الماء المر

انظر

تراها أصبحت مياهها عذبة

حقولها ومزارعها أنتجت الغلة والقمح

مدينتها، انظر، تراها

وقد أصبحت داراً للشواطئ

ومرسى للأرض[٥٨].

لكن حتى يتأتى لهذه الأرض زرع، كان لابد من إلهة للزرع والنبات جاءت عبر عدة عمليات خلق، فأولاً يقوم الإله (أنكى) بوصفه المخصب بتخصيب الإلهة (ننهور ساج)، فتحمل لمدة تسعة أيام، وتضع إلهة الزرع[٥٩]، وأتصور إلهة النبات هذه هى حبة القمح، أو أول حبة قمح، فاسمها (نن شال)، و(شال) كلمة تدل على الفرج الأنثوى كمصدر للحياة فهى السيدة الفرج أو الإلهة الفرج، مع ملاحظة التشابه بين حبة القمح المفلوقة وبين الفرج الأنثوى، وما قد يخطر على بال القدماء، عندما يشاهدون فلقة حبة القمح تخرج حياة جديدة، بعد ريها بماء الخصب كما ينفلق الفرج الأنثوى عن ميلاد جديد بعد ريه بماء الذكر.

إلا أن الأسطورة تشير إلى خلق ثمان نباتات أخرى خلقتها الأم (ننهور ساج) فأكلها (أنكى)، فغضبت عليه (ننهور ساج) غضباً شديداً، حتى أنها قامت تصب عليه اللعنات قائلة: «لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت»،

(٥٨) كريمر: الأساطير.. سبق ذكره، ص٨٦،٨٧.

(٥٩) كريمر: الموضع نفسه.

وهنا أخذ المرض يشتد بـــ(آنكى) وبدأ يتدهور ويذبل[٦٠].

ولنقف الآن قليلاً مع ما جاء فى هذه الأسطورة، التى أراها أول تسجيل حقيقى اكتشف حتـــى الآن لقصـــة الخطيئة الأولى!! فنتساءل: لماذا غضبت (ننهور ساج) كل هذا الغضب على (آنكى) لو لـــم تكـــن قـــد أنذرتـــه سلفاً،وحرمت عليه هذه الثمار قبلاً، وأعلمته بذلك إعلاماً واضحاً؟ ومع ملاحظة أن النص به خروم وتشـــوهات كثيرة أدت لفقد كثير من الأبيات والمضامين! إذن من المنطقى أن يكون هناك علم مسبق أحيط به (آنكى) برغبة (ننهور ساج) عدم المساس بالنباتات الثمانية،وعندما عصى الأمر كان عقابه الموت « لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت» ويبقى التساؤل: كيف يمكن لإله مفترض فيه الخلود، أن يمرض ويمـــوت؟! مـــن هنـــا نفهـــم أن الأسطورة اعتبرت (آنكى) الأب الأول، وطبيعى أن يتصف بالألوهية بحسبان عبادة الأب الأول، بخاصة ما جاء فى بداية الأسطورة بعد تقريظ دلمون كأرض طهور نظيفة، وفجأة وبلا مقدمات تقول: «هو ذلك الذى اضـــطجع وحده فى دلمون»، إنها صورة تلقى بنا فى مرآة الزمان الآتى، عند ظهور التوراة وما قالته عن أب للبشر يعيش وحيداً فى مكان يسمى الجنة، ثم تقول أسطورتنا عن (دلمون) «إنها المحل الذى اضجع فيه آنكى مـــع زوجتـــه» فمن كانت هذه الزوجة؟

هل قصدت الأسطورة بالزوجة الإلهة (ننهور ساج)؟ ربما؛ لكن الأحداث التى تلت مرض (آنكى) تشير إلى منحى آخر، رغم عدم النص عليه فى نصنا هذا المهترئ، لأن مرض (آنكى) كان فى واحد من أضلاعه، واتفقنا أن شفاءه تم بنزع الضلع المريض ليصبح هذا الضلع هو(نن تى) سيدة الضلع، فكان (آنكى) بذلك إلهاً معرضـــاً للموت بسبب خطيئته، وهو ما يتعارض مع صفة الخلود الإلهية.وكان يجمع فى ذاته الذكورة والأنوثة معـــا،فهو ذكر خلقت من ضلعه أنثى ليتحول الخلود الفردى الذاتى بالانقسام إلي خلود للنوع عبر تناسل الـــذكر والأنثـــى، وعليه تتضح عدة حقائق هى:

* كان للآلهة دار طهارة وسلام للمقام هى (دلمون).

---

[٦٠] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص٢٦٣.

* في دلمون حدثت أول عملية خلق للنبات عن طريق تخصيب (آنكى) لـ(ننهور ساج) لتنجب إلهة النبات.

* (ننهور ساج) تخلق بمفردها ثمانية نباتات محرمة.

* يأكل (آنكى) النبات المحرم فتحيق به اللعنة الربانية فيمرض بضلعه ويحتضر، لولا نزع هذا الضلع المريض منه، وتخلق منه سيدة الضلع أولى إناث البشرية.

* يفقد آنكى بذلك ألوهيته كسائل مخصب كونى،ويتحول خلوده الإلهى إلى خلود عبر التناسل، وهنا فى رأيى تكمن العلاقة بين (آنكى) وبين (إنسى) فتحول (آنكى) إلى (إنسى) مهمته التخصيب المستمر لسيدة الضلع (نن تى) أو (نن تو) أو (سيدة الولادة) أو (ماما) أو (مامى) أو (أماه).

ولا يبقى لكى تترتب المسألة بشكل أفضل سوى أن نستكملها بالختم الاسطوانى الذى صور ذكراً وأنثى يأكلان من ثمار نخلة، بإيعاز من الحية (والحية رمز جنسى) لنسد به الثغرات الناقصة فى النص، ليصبح أكل الثمرة المحرمة هو رمز لممارسة الجنس مع أخرى غير (ننهور ساج)، مما استوجب غضبها ولعنتها، ولم تكن هذه الأخرى سوى (نن تى) أو (ننتو) أو (أنتى) أو الأنثى الأم الوالدة الأولى، بينما أصبح آنكى هو (إنسى) صاحب المنى المقدس، بينما تحولت ثمار النخلة (التمر) (وهى رمز نن تى شافية المرض التى مارس معها الجنس آنكى، ولنلحظ نواة التمر المفلوقة وحبة القمح المفلوقة)، لتصبح ثمراً مقدساً وشافياً ومثيراً للغلمة والشهوة، وسبباً لمزيد من منى الرجل وخصبه ــ حتى اليوم ــ بل نعتقد أن كلمة (تمر) لغة، هى التى أصبحت بعد ذلك (ثمر)، لتدل ــ على وجه الإطلاق ــ على جميع أنواع الثمار بمعنى أنها كانت الأصل الأول للثمر عموماً وللخصب عموماً، ومثلها القمح وكل حب مفلوق، (ولنلحظ العلاقة اللغوية بين الحَبْ والحُبْ)، فكان التمر والحبوب الثمارالأم الأولى فى (دلمون) إلى جوار الأب الأول (آنكى) أو (إنسى) والأم الأولى (نن تى) أو (أنثى).

وبما أن (دلمون) يشار إليها فى الأساطير السومرية كمركز إلهى خالد يخالف دنيا السومريين فى الرافدين، فقد بات واضحاً أن (آنكى) الإله الذى فقد الخلود، و(نن تى) زوجته، أو الإنسى والأنثى كأبوين للبشر، قد غادرا هذا المقر الإلهى من زمان بعيد، ليعيشا عيشة إنسانية، بينما ظلت (دلمون) موطن الآلهة الخالدة فى

الأساطير.

العالم التحت أرضي:

إذا كان آنكى إلهاً فقد الخلود وأصبح (إنسى)، فهل كان ممكناً فى العقائد السومرية أن يتحول الإنسان إلـــى إله؟ أو بصيغة أخرى، هل كان ممكنا فى الاعتقاد السومرى أن يحصل البشر على الخلود الدائم؟...

يقول الباحثون أنه لم يخطر قط للسومريين، ولا للشعوب السامية فى الرافدين أو باقى الهلال الخصيب، حتى قبل زمن المسيح بقليل، أنه يمكن للإنسان أن يخلد، وقد قررت ملحمة جلجامش ذلك صـــراحة بتأكيـــدها: أنـــه «عندما خلقت الآلهة الإنسان، قدرت عليه الموت، واحتفظت لنفسها بالخلود»[٦١]، وهنا الفـــارق بـــين الإنســـان والإله، فالإله خالد والبشر فان إلا أن هناك قبساً إلهياً ظل فى البشرية، هو المنى الذكرى والفرج الأنثوى، الـــذى يعود إلى الأب الأول (آنكى) والأم الأولى (ننتى) ، أول رعيل إلهى تحول إلى بشـــر، فجمـــع اللاهـــوت مـــع الناسوت، أو الألوهية مع البشرية.

وقد عبر السومريون عن قناعتهم باستحالة خلود البشر فى مجموعة أخرى من الأساطير، منهـــا أســـطورة (جلجامش وأرض الأحياء) وتقول: إن (جلجامش GELGAMISH) كان يبحث عن نبات الحيـــاة، فـــالخلود هنـــا مصدره مادى فى شكل مادة إذا أكلها الفانى خلد، وهى ذات الفكرة التى قالت بها التوراة، حول شجرة الحياة فى الجنة (التكوين٢ـــ٩:٢٢)وكى يحصل جلجامش على ثمرة الخلود، رحل إلى دلمون بالذات، فهـــى مقـــر الآلهـــة

[٦١] ن.ك. ساندرس: ملحمة جلجامش، ترجمة نبيل نوفل وفاروق حافظ، دار المعارف، ١٩٧٠، القاهرة، ص١٠٢.

الخالدة، ليبحث هناك عن بغيته وفعلاً وجد الشجرة، واقتطف من ثمرها السحرى، وعند عودته:

رأى جلجامش بركة ماء

نـــزل فيها، استحم بمائها

تشممت الحية رائحة النبتة

تسللت،صعــدت من الماء

خطفتها

وفيما هى عائدة

تجدد جلدها

وهنا جلس جلجامش وبكى[٦٢]

حقيقة، إن النص بليغ الدلالة، يلخص ما ذهبنا إليه، ويؤكده

بوفاء واضح جلى، فها هى شجرة الخلد فى (دلمون) مسكن الآلهة، وموطن آباء البشر الأوائــل، تتعــرض مرة أخرى لمحاولة السطو عليها، لكن الحية، والحية بالذات دون جميع الكائنات، رمز الحيا (الفــرج، الجــنس) تتسلل مرة ثانية لتسلب الساعى إلى الخلد ثمرة مسعاه، لتتنعم به دونه، وتخلد بانسلاخها من جلدها كلمـــا آن أوان موتها، ولا يكتفى السومرى بهذه الرمزية الواضحة إنما يزيدنا إيضاحاً، فيفقد (جلجامش) الخلود فى بئر أو بركة ماء والبئر أو البركة باستدارتها رمز واضح آخر للفرج، إنها قصة تدفعنا ــ أو تكاد ــ للظن أن الوعى والشعور كان مسألة مبكرة جدا فى تاريخ نشوء الحياة على الأرض فاحتفظ الكائن إلى اليوم فى عقله بكافة مراحل تطوره الأولى، منذ كان كياناً دقيقاً، يستمر فى الوجود عبر عمليات الانقسام الذاتى، حتـــى تخصصـــت فيـــه أعضـــاء

---

[٦٢] السواح: سبق ذكره، ص٢١٤.

للذكورة، وأخرى للأنوثة، ثم الانتقال إلى انفصال الذكر عن الأنثى (الضلع عن آنكى) لينتهى عهد الخلود الفردى ليبدأ عهد الخلود الجماعى للنوع، عبر التناسل، الذى استدعى التجمع الإجبارى والتجاور لممارسة الجنس، حفاظاً على النوع واستمراره،مما أدى بالضرورة إلى نشوء التجمع الإنسانى.

ولعلى لا أغالى إن قلت: إن السومرى القديم، حاول جاهداً ــ بلغته البدائية ــأن يبلغنا بما بقى فى اللاشعور الجمعى من ذكريات سحيقة فى القدم فوضع أساطير أخرى مثل أسطورة معراج (آدابا ADABA) إلى الســماء، حيث دعاه هناك إله السماء وأكرم وفادته، فدعاه إلى مائدة تحوى طعام الخلد لكن (آنكى) كان أسبق من إله

السماء، فأوعز إلى (آدابا) ألا يتناول منها شيئاً فيرفض (آدابا) الوليمة الإلهية، ويخسر الخلد[٦٣]، فهل بعــد هذا بلاغة فى محاولة السومريين تبليغنا.

فقط، إنسان واحد فقط، رفعه مجد عمله إلى رتبة الألوهية، ونال الخلد وحتى يناله فعلاً تم نقله إلى (دلمون) دار الخلود، ذاك هو بطل أسطورة الطوفان، الذى أنقذ بذرة الحياة على الأرض، فى فلك أسطورى[٦٤]، فكان أن مُنح الحياة الخالدة، أو نصيباً:

زيــو سودرا الملك

سجد أمام آن وآنليل

فمنحاه حياة كحياة الآلهة

---

[٦٣] موسكاتى: سبق ذكره، ص٩٠. انظر أيضاً: ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران،الإدارة الثقافية بالجامعة العربيــة، ط٢، ١٩٦١، القاهرة، مج١، ج٢، ص٣٠.

[٦٤] للمزيد ارجع إلى موضوعنا: من الطوفان السومرى إلى الطوفان النوحى، مجلة آفاق عربية، عدد٩، ١٩٨٣، بغداد.

وجاءا إليه بأنفاس خالدة

كأنفــاس الآلهة

وبأمر آن وآنليل

أمام الملك زيو سودرا

الذى يحفظ أسماء (خرم بالنص)

والبشر

فى جبل العبور، جبل (دلمون)

حيث تطلع الشمس[٦٥]

ويبدو ان بطل الطوفان (زيوسودرا ZIUSUDRA) كان شخصاً حقيقياً، استطاع أن ينقذ فى قاربه إبان كارثة فيضان عاتى، أفراد أسرته وآخرين، فكان مجد عمله كفيلاً برفعه إلى رتبة الألوهية وكانــت الأعمــال الفدائيــة والمجيدة ــ فيما نرى ــ هى السبب الأساسى فى تأليه الوالدين والأسلاف، فى غابر الأزمان، وسبق أن أفضــنا فى التدليل على وجهة نظرنا هذه فى اثنين من أهم أعمالنا المنشورة، الأول كان بعنوان (الأضاحى والقــرابين، الجذور الاجتماعية)، والثانى (القمر الأب أو الضلع الأكبر فى الثالوث)[٦٦].

ومن ثم اكتسب (زيوسودرا) الألوهية والخلود،بعد أن خسر حياته فيما يبدو إبان محاولة إنقاذ بنيه، وقد أخــذ الساميون بهذه

الأسطورة لكن البطل حمل اسم (أوتنابشــتيم UTNABESHTEM) و(إثــرا خاســيس ETHRA KHASIS)

---

[٦٥] س. لامبرج كارلوفسكى: دلمون مدخل إلى الخلود، ترجمة كامل مصطفى اللحام، مجلــة الثقافــة العالميــة، وزارة الإعــلام الكويتية، مارس ١٩٨٣، ص١٠٤.

[٦٦] سيد القمنى: (الأضاحى والقرابين، الجذور الاجتماعية)، فكر للدراسات والأبحاث، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة عدد١١، و(القمر الأب أو الضلع الأكبر فى الثالوث) مجلة الكرمل، نيقوسيا، عدد٢٦.

و(تجنوح TAGNOAH)، لكن الأسطورة المصاغة لبطولة (تجنوح)، دخلتها عناصر من قصة الخلق، فقالت إن (تجنوح) لم يستمر فى هذه الحياة الخالدة، بعد أن خسرها، لما أكل من فاكهة محرمة[٦٧]، ولنلاحظ القرب الزمانى لأسطورة (تجنوح) من وقت ظهور التوراة، حيث اختصر فيها (تجنوح) إلى (نوح)، الذى تقول التوراة إنه عاش عمراً مديداً بلغ حوالى تسعمائة وخمسين عاماً، وهو يكاد يكون ترديداً لمعنى الخلد الألفى، الذى ينقطع فجأة بالأكل من الثمرة المحرمة فى القصة الأصلية (تجنوح) (تكوين٦-٩).

وقد استند الباحثون إلى مثل هذه الأساطير ليقطعوا بأن السومرى القديم لم يعتقد فى حياة خالدة من بعد الموت، وأن الساميين قد تابعوهم فى ذلك، وهذا فى رأينا فهم خاطئ للمسألة من أساسها، لأن الخلود الذى قصدته تلك الأساطير كان مطلباً لديمومة الحياة فى هذه الدنيا، ورفض السومريون الاعتقاد فى أن إمكانية تحقق ذلك أمر منطقى وعقلانى، رغم رغبتهم الواضحة فيه، أما الاعتقاد فى حياة أخرى بعد الموت فى عالم آخر، فهو أمر مقرر لدى السومريين ولا يجادل بشأنه مكابر، ولا يقبل شكاً أو جدلاً، لكنه

لم يأخذ خطه التطورى الذى أخذه عند المصريين، فلم يعتقد السومريون بعودة الموتى فى شكل بعث جديد ولا فى ثواب أو عقاب، وكل ما فى الأمر أن الموتى يرحلون جميعاً إلى عالم آخر، وهو فى ملحمة (جلجامش): «البيت الذى لا يعود داخله»[٦٨]، فى عالم تحت أرضى، خالد، لكن ليس فيه ما يبهج النفس.

وأطلق السومريون على عالمهم التحت أرضى كلمة (كور KUR)، وكانت هذه الكلمة فى الأصل، تدل على وحش تخيلوا مسكنه تحت سطح الأرض، اختطف إلهة أنثى أرضية هى (إيرشكيجال)، وأخذها لتعيش معه كزوجة فى العالم التحت أرضى، وصارا هناك سيدين للعالم التحت أرضى الرهيب[٦٩].

---

[٦٧] ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ط٣، ١٩٦١، مج١، ج٢، ص٣١.
[٦٨] ساندرز: سبق ذكره، ص٩٢.
[٦٩] السواح: سبق ذكره، ص٢٨.

وأتصور أن الكلمة (كور) تحولت من دلالة على الوحش السفلى، إلى الدلالة على العالم الأسـفل عمومـاً، نتيجة تصور أن العالم السفلى يتخطف الأحياء عن الأرض، لينزلهم موتى إلى باطنه،كمن يلتهمهم، أو أن (كور) كان يتخطفهم من الدنيا الأرضية، وبذلك يكون بداية لفكرة ملاك الموت السامى (عزرائيل).

وفى إحدى مناحات الإلهة (إنانا INANA) على حبيبها (تموز DAMUZI) نجد للعالم التحت أرضى اسـماً آخر هو (آدن، أو أدين، أو الدين EDIN) فهو عالم الدين والكلمة (EDIN)، فى الأصل تعنى السهل[٧٠].

وقد اهتم السومريون بالموتى، وزخرت قبورهم بالمتاع والطعام والشراب.ويبدو أنه كان بقصد انتفاع الميت بهذا المتاع، لذلك ربما اعتقدوا بعودة روح الميت بين آن وآخر من العالم التحت أرضى إلى القبـر وهـو مـا افترضه(نجيب ميخائيل)[٧١] لكن ربما كان لوضع المتاع سبب آخر، وجائز أنهم اعتقدوا ببقاء الميت فى قبره حياً لفترة محددة، قبل هبوطه إلى العالم التحت أرضى، مما يجعله محتاجاً فى هذه الأثناء للطعام والشراب.علمـاً أن حكام سومر قبل عهد العاهل (أورنامو) كانوا يصطحبون معهم عند الموت مقتنياتهم وحاشيتهم من بشـر، بـأن يتجرعوا السم ليهبطوا بصحبة سيدهم إلى عالم تحت الأرض[٧٢].

وقد لوحظ اعتقاد السومريين أن أعظم شر يمكن أن يلحق بالميت هو عدم دفنه وفق تقاليد طقسـية محـددة، لأنه فى هذه الحالة سيتحول إلى روح شريرة تجوس فى الأرض تؤذى الأحياء، ويبدو أن هذه الفكـرة صـياغة كهنوتية قصد منها الكسب ليس أكثر،وهو ما يستنتج من المثل السومرى الساخر: «أغلى شيء فى لجش هـو أن تموت»[٧٣] مما يشير إلى ارتفاع أجور الكهان لممارسة عملهم فى طقس الدفن ومغالاتهم فى ذلك.

---

(٧٠) د. فاضل عبد الواحد: عشتار.. سبق ذكره، ص١٦٩.
(٧١) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٧٧.
(٧٢) كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٧٣.
(٧٣) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٧٨.

أما الحياة فى العالم التحت أرضى، المحاط بأسوار سبعة لكل منها باب واحد[٧٤]، يحكمه (كـور) وزوجتـه (إيرشكجال) مع معاونين من المردة والجن، فلها قواعد، أهمها العرى التام، فالميت يدخله عارياً كما ولد عاريـاً، وهو ما نفهمه من أسطورة (نزول إينانا إلى العالم السفلى)[٧٥]، وإن كان سينال بدل الملابس ريشا ينبـت علـى جسده كالطيور[٧٦]، لكن للأسف، ليس فى هذا العالم ميزة لصالح على طالح، فالكل فيه فـى الرغـام والطـين والظلام الأبدى سواسية الرفيع فيه كالوضيع[٧٧].

وهكذا يتضح أنه ليس ثمة علاقة محددة بين هذا العالم التحت أرضى وبين عالم الآلهة الخالد الدلمونى، وإن صفة الأبدية فى كليهما لا تعنى أبداً وجود قاسم مشترك بينهما، بل إنه ليس هناك أية علاقة بين صنفىّ الآلهة الدلمونية وبين الآلهة التحت أرضية.

---

(٧٤) كريمر: السومريون.. سبق ذكره، ص١٧٨.
(٧٥) كريمر: الموضع نفسه.
(٧٦) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٧٨.
(٧٧) جيمس هنرى برستد: انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخرى، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، القاهرة، ص١٧٨.

ملحوظة: المصادر: لويد تشايلد، شيسنو، غود وليبيه، التكريتى، فرانكفورت: ..Royaut e و ..The Birth أخذناها نقلا عـن: د. عبد الرضا الطعان في كتابه: الفكر السياسي للعراق القديم، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨١،والكتاب ذو فضل لا ينكر لفهـم أبعاد الفكر السياسي في العصر السومرى.

الباب الثانى

سفر التكوين البابلى

تأسيس

إذن استطاع الساميون المهاجرون، أن يصبحوا أصحاب السيادة فى كافة بقاع الهلال الخصــيب (بــلاد

الرافدين، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن)، حتى لم نسمع شيئاً عمن سبقهم هناك، لكنهم فيما يزعم البــاحثون ـ

ولنا تحفظنا ـــكانوا أول أمرهم عالة على ثقافات أصحاب المنطقة الأصليين، ثم تمثلوا هذه الثقافـــات، وعبـــدوا أربابها، ومارسوا نظمها وعاداتها وتقاليدها، وأحياناً مزجوا بين ما حملوه من لغة وثقافة فى بيئـــاتهم الأصـــلية، وبين الجديد فى المواطن الجديدة. والباحثون يؤكدون أن أهم ثقافة أثرت فى هؤلاءالمهاجرين الوافدين هى الثقافة السومرية، التى حفظت داخل التراث الدينى السامى بعد ذلك، الذى تبلور نهائياً فى الثقافة اليهودية، التى تضمها دفتا الكتاب المقدس (التوراة).

وقد أشرنا مسبقاً إلى أن أول الموجات من هذه الهجرات المتدفقة كوّنت دولة فى الرافـــدين،هى موجـــة القبائل الأكادية، التى بدأت بالاستقرار على حدود الدويلات السومرية، ثم تسللت إلى الـــداخل تـــدريجياً، وأخـــذ أفرادها يتقاطرون داخل المدن السومرية، ليعيشوا أول الأمر كمواطنين وافدين من الدرجة الثانية، وفى ظـــروف غير معروفة تمكنوا من الإمساك بزمام الأمور، بعد أن استطاع أحد أفذاذهم أن يصل فى مدارج نجاحه الوظيفى، إلى رتبة ساقى القصر الملكى فى مدينة (كيش)، ثم وثب على العرش،ليعرفه التاريخ باســـم الملـــك (شـــاروكين SHARUKEN) أى الملك الشرعى أو

الصادق، وعرفته تواترات التاريخ باسم (سرجون الأول)، الذى تعصب لبنى جلدته الساميين، وبالاعتماد عليهم تمكن من أن يجعل نفسه ملكاً مطلق النفوذ وأن يوحد دويلات سومر فى دولة واحدة، هى الدولة الأكاديـــة، التى استمرت ما يقرب من مائتى عام (٢٣٤٠ ـــ ٢١٨٠ ق.م)، التى كانت أول المراكز القومية المركزية فـــى تاريخ الرافدين.

و(سرجون) هو صاحب أول قصة عن الإلقاء فى اليم، فكتب عن نفسه سيرة كثيراً ما ترددت بعد ذلــك فى سير أبطال الملاحم الشعبية، فقد ولدته أمه خفية وخيفة لأسباب غير موضحة، ووضعته فى سلة من البــوص أحكمت غطاءها بالقار وألقت به فى الفرات، فاحتمله الماء، حتى انتشله فلاح اتخذه ولداً وعلمه الفلاحة، وكـــان كل ذلك تقديراً ربانياً حيث تدخلت العناية الإلهية فى النهاية بشكل مباشر وسافر من أجل البطل الموعود، فشملته الإلهة (عشتار ESHTAR) برعايتها ثم بوأته ملوكية البلاد[٧٨].

وبانهيار الدولة الأكادية استعاد السومريون قدراتهم وأقاموا لهم دولة موحدة (العصر السومرى الثـانى)، انتهت بدفقة سامية أخرى من القبائل العمورية (أو الأمورية أو الحمورية)، الذين أسســوا دولــة بابــل الأولــى (١٨٨٠ ــ ١٥٩٥ق.م)، وكان أشهر ملوكها (حمورابى) صاحب القوانين المشهورة (حوالى ١٧٢٨ق.م).

ويتمسك الباحثون برأيهم فى أن الثقافة السومريةاستمرت تفعل فعلها بعد أن دخلت كنسيج أساســى فــى ثقافة الساميين الذين استوطنوا البلاد، وتسربت إلى كافة الثقافات السامية فى جميع مواضع الهــلال الخصــيب، ويعلل (كريمر) ذلك بقوله:

> وجدت جميع شعوب آسيا تقريباً، كالأكــديين والآشــوريين والبــابليين والحيثيــين والكنعانيين والعيلاميين.. أن من مصلحتها استعارة الخــط المســمارى، لغــرض تــدوين سجلاتهم وكتاباتهم الخاصة.. كانا يتطلبان تدريباً شاملاً فــى اللغــة والأدب الســومريين، ولتحقيق هذا الهدف ــ كان المعلمون والكتاب من ذوى المعرفة، يستوردون بلا شــك مــن

---

[٧٨] د. عبد العزيز صالح: سبق ذكره، ص٧٦.

الأقطار المجاورة بينما كان الكتبة المحليون يشدون الرحال إلى بلاد سومر،للحصول علـــى تعليم خاص فى مدارسها ذات الشهرة الكبيرة، وكانت النتيجة انتشاراً واسعاً لبذور الحضارة والأدب السومريين، إن أفكار السومريين ومثلهم، كأفكارهم فى الكون واللاهوت والأخـــلاق ونظام التعليم،تغلغلت إلى درجة كبيرة أو قليلة

فى أفكار وكتابات جميع شعوب الشرق القديم..[٧٩].

---

[٧٩] كريمر: السومريون..، سبق ذكره، ص٤١٨.

دور الملك فى التكوين

استطاع (سرجون) إذن، ولأول مرة، أن يوحد مدن سومر فى دولة مركزية موحدة، يسودها عنصر سامى وافد، وكان ذلك إيذانا بتحول فوضى الفرقة إلى نظام، فى جهاز إدارى واحد صارم، وخضوع كافة السلطات الاجتماعية المتراتبة، لسلطة واحدة آمرة ناهية، تتمثل فى شخص الملك الجديد، المالك لكافة المشتركات المدينية السابقة، التى تحولت بسادتها البشر والآلهة إلى أتباع للسيد الجديد مطلق النفوذ، الذى تحول بدوره بالسلطة المجردة من القسر إلى سلطة باطشة، بعد أن تدهورت سلطة مجالس المشتركات الأولى وقيودها على العاهل تدريجياً نتيجة للاتساع الهائل للدولة ليمسك الملك المتحرر النفوذ بكل السلطات، وفى الدولة السرجونية، تحرر الملك تماما من نفوذ أى مجالس شعبية، وأصبح القسر والبطش الأسلوب الأسرع فى الوصول والتأثير فى البقاع المترامية الأطراف، لتحقيق مآرب الدولة الموحدة، إزاء طوارئ لا تحتمل انتظار الرأى الشعبى فى دولة واسعة، وتم تمثيل الكل فى ذات الحاكم، والإله الذى ساد بسيادة هذا الحاكم،ومن ثم أخذ الإله يتحول عن صورته الرحيمة القديمة كأب بدائى للمشترك،ليتحول إلى طاغ طغيان الملك، كلمته نافذة نفاذ كلمة الملك، عصيانها قد يدمر الدولة أو يؤخرها على المستوى الإنسانى، فهى خيانة عظمى، وعصيانها على المستوى الإلهى كفر وإثم عظيم، ومن ثم أصبحت كلمة الملك والإله واحدة، لا راد لها ولا لقضائها، فتحولت القدرة الإلهية من الفعل بالعمل، إلى الفعل بالكلمة، وظهر لأول مرة دور الكلمة الإلهية فى التكوين الرافدى، على ما سنرى بعد قليل.

المهم أن الساميين الوافدين تركوا الآلهة السومرية على حالها لكن مع تبديل فى أسـمائها إلـى أسـماء سامية، ومع بعض التغيير فى الأدوار والوظائف،فظل مجمع السبع مقررة المصائر قائماً وكذلك مجمع العظـام الخمسين،لكن بعد أن توارى (آن) زعيم السبع مقررة المصائر، ليحل محله (إيل) أو (إل) السـامى أمـا الأرض (كى) فأصبح (أرد ARD)، كذلك (أوتو) الشمس تم تعديله إلى (شمش)، و(نانا) القمر باعتبـاره الإلـه جميـل الصورة الزين، إلى (سين)، والزهرة (إينانا) إلهة الجنس الشبقة العاشقة دومـاً للعشـرة والمعاشـرة الجسـدية، أصبحت (عشتار) من العشرة والتعشير (أى الجماع والحمل)، بينما تحول (آنليل) إلى (إلليـل) خـلال الدولـة الأكادية، ثم أزاحه إله الدولة البابلى الصاعد (مردوخ MARDUK) نهائياً، واستولى على صفاته ومناصبه، ثم لم يكتف بذلك، بل اقتنص كل اختصاصات الآلهة العظام الخمسين، ولما يمض وقت قصير حتـى تمكـن مـن الاستيلاء على اختصاصات باقى الآلهة، وحتى دور (آنكى) الأب الأول، سُلب منه مبدئياً على يد إله جديد هـو (آيا EA)،

ثم أخذه منه (مردوخ) باعتباره فى الميثولوجيا البابلية ابن (آيا) ووريثه، أو الابن الذى فـاق أبـاه قـوة وحكمة.

وفى ذلك يقول (عبد العزيز صالح): إنه قد «انتفع البابليون ببعض عناصر الفكر السومرى، عن أصـل الخلق المادى والمعنوى فى دنياهم، وخرجوا بنظرية عن نشأة الوجود، جعلوا ربهم قطـب الـدائرة فيهـا»[٨٠]،

---

[٨٠] د. عبد العزيز صالح: سبق ذكره، ص٤٧٩.

ويضيف (بوتيرو): «إن البابليين لا يبدو أنهم افترضوا انعداماً كلياً للأشياء كأصل الوجود، بل افترضوا فوضـى وعدم انتظام شامل، وبهذا فإن الكون لا يبدأ بخلق.. لكن يبدأ بتنظيم ما هو فى حالة فوضى»[٨١].

وقد وردتنا أسطورة شبه متكاملة للتكوين البابلى،فى الملحمة المسماة (إينوما إيليش Enuma Elish) التى تعنى (فى العلا عندما) أو (عندما فى العلا)، وقد دونت فى سبع لوحات، يعود تاريخ كتابتها إلى مطلـع الألـف الثانى قبل الميلاد، وتؤكد أن مبعث الفوضى الكونية الأولى كان يعود إلى سيادة إلهة أنثى عريقة قديمـة، هـى الإلهة (تيامت TIAMAT) ولنستمع إلى (بوتيرو) يسرد علينا موجزاً لهذه الملحمة، فيقول:

فى الأسطورة الشهيرة للخليقة،المسماة إينوما إيليش.. التى ألفها علماء الدين فى بابل لتعظيم الإله مردوخ.. فى الأصل لم توجد سماء ولا أرض، لكن فقط مياه فـى حالـة مـن الفوضى، مكونة من إلهين أصليين، اختلطا مع بعضهما، همـا الآبسـو، والمومونيامـت.. ونتيجة اندماج هذين الإلهين.. خرج الإله آن، الذى أولد أيا على شكله، والإله أيا قضى على الآبسو لأنه أراد تدمير نسله، وأولد مردوخ، وتبع هذا الحدث ثورة تقودها تيامت ضد الآلهة انتقاماً للآبسو، وتحضّر لمعركة مخيفة وتجهز مجموعة من الوحوش الكاسـرة.. ويـرفض الإله أيا الاشتراك وخوض الصراع ضد تيامت ويقبل الإله مردوخ النزال، للحصول علـى السلطة العليا.. ويجرى النزال وجهاً لوجه،مردوخ ضد تيامت، وينتصر عليهـا، ويسـجن جيشها المخيف ويقسم جسدها إلى نصفين، وينفخ فيه الهواء ويعمل مـن نصـف جسـدها

---

(٨١) بوتيرو: سبق ذكره، ص٩٨.

العلوى ــ الذى يرميه إلى الأعلى ــ السماء،ومن النصف الثانى.. الأرض.. وينظم بـــذلك

مردوخ القبة السماوية بكل نجومها، التى

حاز عليها بعد نضال عنيف فى تنظيم عالم الآلهة، ويتوج، ويحتفل به كسيد للآلهـــة

السماوية، وعلى الأرض(٨٢).

إذن: كان فى الأصل غمر مظلم من الماء، ذكر هو الآبسو (عرفنـــاه باســـم آنكـــى أو إنســـى الســـائل المخصب)، والمومو (أى الماما أو الأم الكبرى) تيامت،(وواضح لصق اسمها من تى +أم = تيـــام = الأم تـــى)، وبتلقيح الآبسو كسائل مخصب للأم تيامت، جاء الإله السماء (آن) وولد (آيا) الذى قضى على (آبسو) لأنـــه أراد تدمير نسله (ولنلحظ الرمزية هنا: أيا إله حل محل الإله آبسو كإله للسائل المخصب فى الثقافة الســـامية الغازيـــة محل الثقافة السومرية.أما لماذا قضى أيا على آبسو، فلأن آبسو إله سومر، أراد تدمير نسله أيا السامى؟).

ثم ولد (أيا) ابنه (مردوخ) إله الدولة والملكية المركزية ونتيجة مقتل السومرى (آبسو) قامت الأم الإلهـــة تطالب (أيا) السامى بدمه، وهنا يقوم الإله الابن (مردوخ) بالصراع ضد (تيامت) ليحصل على السلطة العليا.

ولنفهم المعنى الأخير (لكى يحصل على السلطة العليا)، نستعين مباشرة بلوحات (الإينوما إيليش) فنجدها تقول:إن الآلهة وهى تجد نفسها مهددة من الأم البحر (تيامت) تلجأ إلى مردوخ أحدث الآلهة، إله الدولة الجديـــدة، لكن (مردوخ) يستفيد من ذلك، ليتجاوز سلطة مجلس السبع مقررة المصائر الخالقة،والخمسين العظام فيقول:

---

(٨٢) نفسه: ص٩٨،٩٧.

إذا كان عليَّ أن أكون بطلكم

وأن أقهر تيامت، وأنقذكم

اجتمعوا إذن

وأعلنوا عن سلطتى العليا

اجلسوا حقاً فرحين

فى بشو كينو

واتركونى أحدد مثلكم المصير

وذلك عن طريق:

الكلام الذى ينطق به فمى

وبهذه الطريقة

لن يكون بالإمكان

أن يتغير شىء مما أقرر

الأمر الذى أعطيه

لا يُرد، لا يتغير

وفعلاً

أقاموا له عرشاً يليق بأمير

وجلس يترأس وهو يواجه آباءه

أنت الأكثر تمجيداً بين كبار الآلهة

إن ما تقرره لا يعارض

إن كلمتك الآمرة هى كلمة آن

منذ اليوم

لا يكون ما تنطق به عرضة للتغيير

نطقك يغدو الحقيقة

وأمرك لا يحتمل شكاً

وقالوا لبكرهم مردوخ:

افتح فمك

تتلاشى قطعة القماش

تكلم ثانية

تعود القطعة كما كانت..

ولما رأى آباؤه ثمرة كلمته

قدموا له الخضوع فى فرح

قائلين: من دونك ملك..

أيها السيد:

احفظ حياة من يؤمن بك

أيها السيد:

انزع حياة الإله الذى يضمر السوء

مر بالغرق، أو بالخلق

يكن ما تأمر به[٨٣]

وهكذا ظفر (مردوخ) بالسلطة المطلقة، وتخلى له مجلسا الآلهة عن سلطانهما، ليصبح سيداً أوحداً، معبراً عن سلطة الملك البابلى، فى دولته المركزية الواسعة، ويؤكد لنا ذلك، طقس سنوى كان يقوم فيه الملك بتمثيل دور (مردوخ) فى مسرحية دينية، يحارب فيها (تيامت) وجيشها حتى يقضى عليها[٨٤]، ممثلاً بذلك وقائع سفر التكوين، وقد ذكر هذا الطقس فى أكثر من نقش، إضافة إلى أننا نتأكد من مصداقية هذا الربط الذى نفترضه بين مردوخ والملك، بالنظر إلى ما ورد فى الأسطورة ذاتها، فالآلهة تقول:

لقد خلصتنا الآن أيها الإله

فماذا ستكون هبتنا لك؟

(إن الهبة ستكون هى تثبيت الملوكية، انظر النص:)

دعنا نبنى عرشاً

مأوى لإقامته؟![٨٥]

ولا يكتفى (مردوخ) بذلك، كما لم يكتف الملك بمجرد عرش، بل يسلب (مردوخ) الآلهة العظام الخمسين فى المجلس سلطاتهم، أو كما تقول الأسطورة:

أما نحن

فمهما أطلقنا عليه

---

[٨٣] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص٢٩٤،٢٩٣.

[٨٤]فاضل عبد الواحد: عشتار...، سبق ذكره، ص١٣٤.

[٨٥]سليمان التكريتى: أساطير بابلية، مطبعة النعمان، النجف، العراق، ١٩٧٢، ص٥٩،٧٣.

فهو إلهنا

ألا فلنعل أسماءه الخمسين!![٨٦]

وهكذا يستولى الملك بدوره على سلطات المجالس شبه الديمقراطية الأولى، الباقية من نظام المشتركات المدينية، بعد توحيدها فى دولته المركزية، مع ملاحظة أن هذه التطورات تعبير فى الوقت ذاته، عن سيادة مطلقة للإله الذكر، تمثلت فى الفعل والخلق بمجرد الكلمة، كما تمثلت فى لوحات (الإينوما إيليش) حيث يقوم مردوخ بما قام به (إنليل) من قبل، لكن (إنليل) الذى ظل زماناً طويلاً إلهاً لطيفاً لطف طبعه (الهواء)، فرفع أباه آن عن أمه (كى)، فى مياه الغمر الأولى (نمو)، أما مردوخ فكان عنيفاً قاسياً، بعد أن حاز إمكانات أصبحت ضرورية، لحفظ الاستقرار فى دولته السماوية، وضرورية للملك الأرضى لذات الغرض، وهو رأس دولة كبرى مترامية الأطراف، تحتاج حزماً وقوة وعنفاً، لذلك قام (مردوخ) وبقسوة ينفخ (تيامت) بالهواء، ثم:

شقها كما تشق الصدفة قسمين

وثبت نصفاً جعله سقفاً سماء[٨٧]

شطر جسدها شطرين،

أعلاهما ثبته فى السماء

خلق منه السماء

والأسفل ثبته فى الأرض

خلق منه الأرض[٨٨]

---

(٨٦) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص ٣٠٤.

(٨٧) نفسه: ص ٢٩٨.

(٨٨) د. أنيس فريحة: ملاحم وأساطير من الأدب السامى، دار النهار، ط٢، بيروت، ١٩٧٩، ص١٠٦.

ويعقب موسكاتى هنا بقوله: (وبذلك قسم المياه الأولى إلى مياه فوق الجلد Firmament وأخرى تحـت الجلد)[٨٩].

ونتابع الإينوما:

صنع مردوخ منازل للآلهة

خلق الأبراج

ثبتها فى أماكنها

حدد الأزمنة

جعل السنة فصولاً

ولكل شهر من الاثنى عشر

ثلاثة أبراج

حدد الأيام بأبراجها..

وإلى الشرق

وإلى الغرب

فتح بوابة

وسلط القمر على الليل

وجعله زينة فى الليل

به يعرف الناس مواعيد الأيام[٩٠]

---

[٨٩] موسكاتى: سبق ذكره، ص٨٥.

وبعد أن رتب (مردوخ) فى هذا الماء، أو الجلد السماوى، كواكبه ونجومه، والنيّرين الكبيرين: الشمس والقمر، هبط إلى النصف الثانى (الماء والأرض)، وهناك:

مردوخ على سطح الماء

ظفر حصيراً وصنع شيئاً من التراب

وخلطه مع الحصير

وهذا كون لوحاً صلباً

فوق المياه

هو: الأرض[٩١]

لكن سماء (مردوخ) لم تكن سماء واحدة، وأرضه لم تكن أرضاً واحدة إنما كانت السماء سماوات، فهى سبع سماوات طباقاً، والأرض أيضا، طبقات سبع، أما فى أعلى السماوات، فقد ابتنى (مردوخ) لذاته العليا عرشاً يليق بجلاله، وبإطلاقية سلطانه[٩٢].

ولما انتهى (مردوخ) من التكوين الكونى، اجتمعت الآلهة واحتفلت بتتويجه سيداً للكون، وبنوا له مدينة (بابل) أو (باب ــ إيل) أو (باب ــ الإله) لتكون مقراً لممثله على الأرض، وفى وسطها بنوا له معبد (الإيساجيل Esag El) وترجمته الحرفية (مقر رأس الإله)[٩٣]، مما يشير إلى أن (مردوخ) قد تعرض للقتل والذبح، باعتبار المعبد مدفناً للرأس فقط، مما يربطه بآلهة الفداء الشهيدة وعبادات الخصب والرى، مثل (أوزيريس OSIRIS)

---

[٩٠] فريحة: ملاحم..، سبق ذكره، ص١٠٧.

[٩١] بوتيرو: سبق ذكره، ص٩٦.

[٩٢] د. أنيس فريحة: دراسات فى التاريخ، دار النهار، ط١، بيروت، ١٩٧٤، ص٥١.

[٩٣] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص١٥١.

المصرى و(أدونيس الفينيقى)، الذى هـو أحـد البعـول الكنعانيـة، و(آتـيس ATIS) الفريجـى، و(ميتهـرا METHERA) الفارسى، و(يسوع) العبرى، و(الحسين) العربى.. إلخ، وقد وجدنا أن أسطورة إله الرى الـذبيح قد لحقت بالإله (مردوخ)،وكانت تقام له سنوياً، طقوس واحتفالات للتذكرة بعودته حياً من بين الأموات، فى عيـد للقيامة مجيد، وساعتها يتلو الكهنة أمامه أسماءه الخمسين، إعلاناً عن حيازته كل ألقاب السيادة. وأهم هذه الألقاب لفظ الجلالة الاسمى (إل) أو (إيل)، ولقب (بعل) أى سيد الآلهة أو ربها، ويفيد السيادة عموماً، وغنى عن البيـان أن الملك البابلى وهو يقوم بدور (مردوخ) فى هذه التمثيلية الدينية، كان يحظى سنوياً وبتكرار دورى وتكـريس مستمر، باعتراف أعضاء كل المشتركات المنضوية تحت لوائه، بسيادته المطلقة، بعد أن حاز كل الأسماء وكـل شارات السيادة، وكل رموز السلطان المرموز لها فى الأسطورة بالأسماء الخمسين.

وعليه فقد استولى الملك نهائياً على كافة شارات ومناصب آباء المشتركات، الذين بدأوا سادة بدائيين، ثم سادة لمشتركات معبدية فمدينية، وانتهى أمرهم بالتسليم للملك القوى الصاعد، المتربع على عرش بابل، فأصـبح هو الأب الواحد الأوحد للجميع، ولا أب يدانيه فى إطلاقية النفوذ، ويبدو أن بداية ظهور الأب الأرضى المتفـوق هى التى أفرزت رباً متفوقاً عن بقية الأرباب، كخطوة تطورية فى السماء أفرزها جدل المجتمع علـى الأرض، مما ميز بالتدريج إلهاً عن سائر الآلهة، استطاع بعد ذلك أن يلغيها ويجعلها آلهة تابعة، لعدم قبول رفيقـه السـيد الأرضى المستبد بوجود أى منافسين له.

ومن هنا أصبحت كلمة السيد الأرضى المتربع فى بابل لا راد لها، نافذة بقوتها الذاتية، لأنها صادرة عن فم الأب الأعظم، الذى تمثل كلمته حكمة الإله (مردوخ)،يكفى أن تكون نطقاً باللسان فيكون كل المراد محققاً فـى الواقع.

وبذلك تركت الفكرة السامية عن الكلمة الملكية الفاعلة بذاتها، أثراً فى عموم فروع اللغة السامية،وأصبح الأمر (كُن) من الفعل يكون أى يوجد، (ويكوِّن) أى يخلق، والعالم الموجود بكليته إنما هو أحد اشتقاقات الكلمـــة، فهو (الكون)، فامتلك الأمر (كُن) قدرة سحرية لغوية تؤدى بمجرد نطقها من قبل شخص مؤهل لها (ملك، إلـــه، ساحر، كاهن) إلى (الكينونة)، أى الوجود الواقعى المتحقق (كياناً) عيانياً.

لكن الأمر الواجب إيضاحه هنا، هو أن (مردوخ) لم يخلق بالكلمة إنما بالعمل اليدوى، فقد شق (تيامـــت) كما تشق الصدفة، ورفع السماء وحط الأرض... الخ، بينما اقحمت مسألة القدرة السحرية للكلمة الفاعلـــة (كُـــن) إقحاما فى الإينوما إيليش:

أقاموا له عرشاً يليق بأمير

وجلس يترأس وهو يواجه آباءه

أنت الأكثر تمجيدا بين كبار الآلهة

إن ما تقرره لا يعارض

إن كلمتك الآمرة هى كلمة آن

منذ اليوم

لا يكون ما تنطق به عرضة للتغيير

نطقك يغدو الحقيقة

أمرك لا يحتمل شكاً؟!

واضح أن النص هنا ليس تعبيراً عن مطلب الملك الأرضى، ليصبح سيدا مطلق النفـــوذ، إزاء طـــوارئ اكتسبت صفة الديمومة،بحيث تنفذ أوامره دون مناقشة، لذلك نلحظ أن كل ما جاء عن الكلمة الخالقة فى الأساطير

لا يتعلق فعلا بما حدث لتكوين الكون وإيجاده،إنما كان تجربة كتجارب الحواة وألعابهم، قصد بها تأكيد تبعية الأتباع للسيد، أنه (لو أراد) شيئاً بالكلمة سيحققه:

ووضعوا فى الوسط قطعة قماش

وقالوا لبكرهم (مردوخ): افتح فمك

تتلاشى قطعة القماش

تكلم ثانية تعود القطعة كما كانت

ولهذا

قدموا له الخضوع فى فرح قائلين

مَنْ دونك ملك؟

وإعمالاً لكل ما سبق، يمكننا الزعم أن دخول فكرة الكلمة الخالقة إلى سفر التكوين، بدأت تعبيراً عما وصل إليه التطور السياسى فى المجتمع الإنسانى، وتعبيرا عن وجوب الطاعة الكاملة غير المشروطة للعاهل الذى لا ترد كلمته ولا تتبدل، والتى يجب تنفيذها الفورى مهما كانت غير مقبولة أو غير معقولة، ومع ذلك واصلت فكرة الكلمة الخالقة صعودها الخيالى فى اللغات السامية، ليصبح للأمر (كُنْ) دلالات القوة الفاعلة فى الكلام لكنها على المستوى الفعلى لم تكن ذات دور فاعل حقيقى فى عملية الخلق، التى تمت بموجب (الإينوما إيليش) البابلية.

وظل فكر الساميين الدينى بعد ذلك، يحتفظ بكلتا الفكرتين جنباً إلى جنب: الخلق بالعمل اليدوى والفعل البدنى من جانب الإله الخالق (يفصل السماء عن الأرض، يخلق الإنسان بيديه، يكتب ألواح الشريعة التوراتية بإصبعه... الخ) وفى الوقت ذاته، يمكنه أن يخلق بمجرد الكلمة تعبيراً عن سلطانه اللامحدود، وقدرته اللانهائية،

لكن يبدو فى مختلف نصوص الديانات السامية، أن الأمر (كُن) كان مجرد إمكان غير متحقق (حتى الآن)،أو هو استعداد إلهى موقوف لإثبات القدرة المطلقة فقط، فهو استعداد بالقوة لم ينتقل إلى الفعل، وربما ينتقل مـــن القـــوة إلى الفعل حين يشاء، لكنه لم يعد الآن مجدياً، بعد أن وجد الكون فعلاً بالطريقة اليدوية التصنيعية.

ولو نظرنا لتصوير (مردوخ) فى النقوش، سنجده صورة مطابقة للنقوش الملكية، نقش لرجل يلبس تاجـــاً مخروطياً عالياً، تزينه وريدات، له لحية طويلة مصففة بتجاعيد مصطنعة على غرار صنعة الحـــلاق بالقصـــر الملكى، ومثل الملك كان (مردوخ) يرسل شعره خلفه، بينما يرتدى ثوبا طويلا مرصعا بالنجوم، يضم يسراه إلى صدره، وهى تقبض على رموز السيادة : (الدائرة والعصا)[٩٤] وهما فيما نرى رمزين لحيـــازة الســـيادة علـــى مجتمعين ونظامين: الرعوى الذكرى والزراعى الأمومى[٩٥]، وإمساكهما إمساك بقدرة منح الحيـــاة وإعطائهـــا، فالعصا عضو الذكورة، والدائرة فرج الأنثى.

الدم روح الإنسان:

يقول الباحث العراقى (فوزى رشيد): إن «قصة الخليقة البابلية، قد تضمنت بين سطورها وصفاً لوضعية الآلهة، بعد أن كتب عليها العمل، وكيف أن تلك الوضعية كانت لا تختلف عن وضعية الإنسان، بعد خلقه..

عندما كانت الآلهة مثل البشر

(وتعنى لدينا: عندما كان الملوك كبقية الناس)

توجب عليها العمل

---

[٩٤] بوتيرو: سبق ذكره، ص٤٤.

[٩٥] للمزيد حول تقسيمنا للنظام الاجتماعى الغابر إلى رعوى يرتبط بسيادة الذكر، وزراعى يرتبط بسيادة الأنثى، ارجع إلى بحثنا: الأضاحى والقرابين والجذور الاجتماعية، سبق ذكره.

وكانت سلة عمل الآلهة كبيرة

وكان عملهم صعباً

لذلك تعددت الشكوى..

ويعنى هذا أن الإنسان قد خلق، من أجل أن يقوم بتزود الآلهة بالطعام والشراب والسكن، وهذا ما قاله (فوزى رشيد)[٩٦] مع تعليقنا بين قوسين. لكن مع سياق فهمنا للأمور، نرى القصة صدى لواقع حدث، بعد أن تفرغت فئة للحكم،وتحررت من عناء العمل، لذلك تردد القصة ما سبق ورأيناه فى التكوين السومرى، حيث انقسم مجتمعهم الإلهى إلى صنفين من الآلهة:آلهة عاملة أو شغّيلة، وآلهة متفرغة للخلق وإدارة شئون الكون، لكن التكوين البابلى قام هنا بصياغة جديدة فأوضح أن الآلهة خلقت البشر ليحملوا هم أعباء العمل، لتتفرغ الآلهة لإدارة شئون الكون والبشر، وكان أكبر الآلهة (مردوخ) الذى يمثله على الأرض ملك بابل، وما على أفراد المجتمع سوى السعى من أجل خدمته وراحته، وتقديم فائض إنتاجهم بين يديه.

ونعود إلى (الإينوما إيليش) نستطلعها التفاصيل، فتقول فى لوحتها السادسة:

ألا فليذكر الرعايا دائماً إلههم

وطبقاً لكلمته يهتمون بالآلهة

ألا فلتحمل القرابين

إلى آلهتهم وإلاهاتهم

وبغير نسيان

فليعنوا دائماً برعاية آلهتهم

---

[٩٦] رشيد: خلق الإنسان..، سبق ذكره، ص١٩،١٨.

ليستصلحوا أراضيهم

ويبنوا هياكلهم

ليخدم ذوو الشعور السوداء

آلهتهم[٩٧]

ونستكمل من ملحمة (اتراخاسيس) بدءاً من السطر (١٧٩) بالعمود الرابع، الذى يقول:

(بيليت إلى) كانت حاضرة الرحم

ليتها تخلق الإنسان الأول

لكى يحمل هذا الإنسان سلة عمل الآلهة

نادوا مولّدة الآلهة الإلهة (مامى) الحكيمة

وسألوها:

أنت الرحم خالقة البشر

اخلقى الإنسان الأول

من أجل أن يحمل النير..

سلة عمل الآلهة يجب عليه حملها

فتحت الإلهة (ننتو) فاها

وخاطبت الآلهة العظيمة:

---

[٩٧] د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص٣٠٤.

ليس بمقدورى أن أفعل ذلك

إن القدرة بيد الإله (آنكى)

إذ بإمكانه أن يجعل كل شىء طاهراً

فتح الإله آنكى فاه

وخاطب الآلهة العظام:

فى اليوم الأول، والسابع،

والخامس عشر من الشهر

سأقيم طقوس الاغتسال

وسأقيم الحمام

وليذبح الآلهة إلهاً من بينهم

وبعد ذلك يطهروا أنفسهم فى الحمام

وعلى الإلهة (ننتو) أن تمزج الطين

مع لحمه ودمه

وليت الإله والإنسان يمتزجان سوية

فى الطين دعونا نستمع إلى الطبل

من أجل مصير الأيام القادمة

وبسبب لحم الإله

نود أن يسكن شبح الموت

جسم الإنسان

وليذكر هذا الشبح الأحياء بالموت

ماداموا على قيد الحياة

ليت شبح الموت أن يوجد فى الإنسان..

ثم فتحت الإلهة (مامى) فاها

وقالت تخاطب الآلهة العظام:

لقد عهدتم إلىّ عملاً فأكملته

ومادمتم قد ذبحتم إلهاً رغم قدسيته

فها أنا قد رفعت عنكم عناء أعمالكم الشاقة

وجعلت الإنسان يحمل سلة عملكم

وها أنتم قد وهبتم صراخكم للبشرية

وها أنا حللت عنكم النير

حررتكم من الواجبات

ولما سمع الآلهة كلامها

تراكضوا إليها وقبلوا قدميها

وقالوا:

فى السابق الإلهة (مامى) كنا نناديك

والآن: ليكن (سيدة الآلهة) اسمك[٩٨]

---

[٩٨] رشيد: خلق الإنسان..، سبق ذكره، ص٢٤-٢٥.

ولاستطلاع أمر هذا الإله الذى ذبح، نعود مرة أخرى إلى (إينوما إيليش) فتطالعنا:

قتل (كنجو)، قطعت شرايينه

سال الدم

ومن الدم، خلق الإنسان

ليعبد الآلهة، يخدمها[٩٩]

ولأن (إينوما إيليش) أكثر سامية من (إترام خاسيس) المتأثرة بالفكر السومرى أكثـــر، فـــإن (الإينومـــا) تحاول إبراز دور (مردوخ) بفاعلية أوضح، فى عملية خلق الإنسان، فتقول:

بعد أن سمع الإله (مردوخ)

كلمات الآلهة

تحرق قلبه من أجل خلق الكمال

وعندما أخبر الإله (أيا) بقراره

وشرح له خطة العمل

التى رسمها فى ذهنه:

أريد أن يحضر لى الدم والعظم

أريد أن أخلق لوللو

الذى سيكون اسمه الإنسان

لأنى أريد أن ألقى عليه عناء الآلهة

---

[٩٩] فريحة: ملاحم..، سبق ذكره، ص١٠٩.

حتى تنعم هى بالراحة

وأريد أن أجعل طريق الآلهة

محاطاً بالإبداع..

يجب إحضار أحد إخوانك

لنذبحه ونصنع منه البشر

وليت الآلهة العظام تجتمع الآن

وتعترف عليه الآلهة

جمع الإله (مردوخ) الآلهة العظام

وبلطف أمرهم أن يقدموا المشورة..

سأضعكم الآن تحت القسم

وأطلب منكم الحقيقة

من منكم تسبب فى نشوب الحرب؟

(تيامت)!

(تيامت) أثارتها ونظمت الثورة.

عليكم بإحضار الذى تسبب

فى نشوب الحرب

لأنى أريد أن أحمله وزرها

لتعيشوا أنتم فى هدوء

(كنجو)

هو الذى تسبب فى نشوب الحرب

و(تيامت) أثارتها ونظمت الثورة،

ربطوه

وجاءوا به إلى الإله (أيا)

وحملوه وزر جريمته

وسفكوا دمه

وعلى دمه خلق الإله (آيا) البشر

وحملهم عناء الآلهة

وتحررت هى منه

وعندما قسَّم الإله مردوخ

ملك الآلهة

آلهة الآنوناكى إلى قسمين

علوى

وسفلى[100]

وهكذا سجلت اللوحة السادسة:

إنه (كنجو)

هو الذى أثار الفتنة

---

[100] رشيد: خلق الإنسان..، سبق ذكره، ص٢٥.

وحرض (تيامت) على الثورة

واشترك فى المعركة

فقيدوه

وأمسكوا به أمام (آيا)

ووضعوا عليه جريمته

وفصدوا دمه

وصاغوا منه البشر[١٠١]

وعليه سجلت ذات اللوحة قول (مردوخ):

سأكتل العظم وأخلق اللحم

سأصنع إنساناً..

سيكون اسمه الرجل..

سيكلف بخدمة الآلهة[١٠٢]

ولنقف الآن مع هذه النصوص، لنحاول معرفة علاقتها بواقع الأحداث، ولنبدأ مع مبتداها:

عندما كانت الآلهة مثل البشر

---

(١٠١) د. نجيب ميخائيل: سبق ذكره، ص٣٠١.

(١٠٢) نفسه: ص٣٠٠.

توجب عليها العمل

فالنص يردد هنا صدى واقع أحداث المجتمع، قبل تفرد فئة بالحكم دون باقى الأفراد، عندما كان الجميع سواء فى العمل، ثم تطورت الأوضاع إلى تفرد البعض بالإدارة، واستيلائهم على فائض إنتاج الأفراد:

ألا فليذكر الرعايا إلههم..

ألا فلتحمل القرابين

إلى آلهتهم وإلاهاتهم

وعلى باقى أفراد المجتمع الكد والعنت والكدح فى الأرض،

ليستصلحوا أراضيهم

ويبنوا هياكلهم

وإن الربط بين العمل فى الأرض، وبين بناء الهياكل والمعابد، هو ترسيخ واضح لسلطان الملك المرتبط بفائض العمل، وبقدسيته كإله يستحق هذا الفائض بالحق الإلهى، ثم لنتأمل أبيات ملحمة (إترام خاسيس)،التى يتضح فيها أثر تقديس الميلاد من أم إلهة، وهى فكرة أقدم:

(بيليت إلى) كانت حاضرة الرحم

ليتها تخلق الإنسان

(لنلحظ أن القراءة الأصدق لاسم الإلهة بيليت إلى هو بعليت إيلى، أى البعلة الإلهة أو السيدة، أو سيدتى البعلة)

وتظهر فى النص أثر مفاهيم عبادة الخصب والرى فى أصل الوجود والخلق بالميلاد من أم أولى، وهـو بدوره أثر من عبادة الأم فى مجتمعات الخصب القديمة، وذات النظام الاجتماعى الأمومى الغابر، ويتضح ذلـك فى النص:

نادوا مولدة الآلهة

الإلهة (مامى) الحكيمة

وسألوها:

أنت الرحم، خالقة البشر

والإلهة (مامى) هى التى عرفناها فى سفر التكوين السومرى،باسم (ننتى) أو (ننتو) وهو ما يردده نصنا الحالى لكن بعد التمازج مع الفكر السامى فى نظامه الأبوى الذكرى، الذى سلب هذه الأم قدرتها الذاتيـة علـى إنجاب الحياة وحدها دون معين، فيقول:

فتحت الإلهة (ننتو) فاها

وخاطبت الآلهة العظمى

ليس بمقدورى أن أفعل ذلك

إن القدرة بيد الإله (آنكى)

لم يزل الإله (آنكى) حتى الآن فاعلاً فى أسطورتنا السامية المبكرة، ومن الضـرورى أن يلقـى ببـذرة الخصب، أو السائل المخصب، حتى يتم التكوين المطلوب، لكن يدخل هنا عنصر جديد على المناطق الخصـبة،

فقد تصورت هذه المناطق فى فجر الفكر أن وجود البشر مسألة خاصة بالأم وحدها، خاصة أيام المشاع البدائى القديم، ولم يكن للذكر دور يمكن ملاحظته فى عملية الحمل والوضع، كنتابج التقاء المرأة بأكثر من رجل، فتصوروا أن دم الحيض هو سر الميلاد، ومنه يتكون الجنين لدى المرأة دون معين، لكن دخول الثقافة الذكرية أدخل دوراً واضحاً للذكر فى التكوين الإنسانى، مع رغبة مُلحّة فى إلغاء دور الأنثى تماماً، إلغاء لسلطانها.

وحتى يتم الخلق من الدم باعتباره المادة المعروفة لتكوين الجنين، وليس لديهم مادة أخرى يقبلها حسهم للتكوين المطلوب فنعتقد أنهم عمدوا إلى الدم كمادة لتكوين الإنسان.الذى إذا جرح سال منه هذا الدم الذى خلق منه حتى إذا نفذ دمه مات، لكنهم استبعدوا دم الأنثى واستبدلوه بدم ذكرى، وبما أن الذكر لا يحيض، إذن فليذبح؟! ومن هنا سجلت النصوص:

قتل كنجو، قطعت شرايينه

سال الدم

ومن الدم خلق الإنسان

وهكذا نظن الفكر الذكرى قد حقق سلطان فلسفته، ثم ضمّنها تفسيره لظاهرة الموت، فالإنسان يموت لأنه تكّون من دم إله ميت (بعد مزجه بالطين):

وبسبب لحم الإله

نودّ أن يسكن شبح الموت

جسم الإنسان

وليذكر هذا الشبح الأحياء

بالموت

ماداموا على قيد الحياة

ليت شبح الموت يوجد فى الإنسان؟!

ثم ترى (الإينوما) الأكثر إيغالاً فى الطابع الذكرى، ومركزية السلطان، وجوب تقسيم المجتمع طبقتـــين: طبقة تعمل، وطبقة تحكم وتدير، وهذا هو الكمال وتمام النظام بعد الفوضى الكونية، والاجتماعية، الأولى، فتقول:

بعد أن سمع الإله (مردوخ)

كلمات الآلهة

تحرق قلبه من أجل أن يخلق الكمال

وقد حقق ذلك عندما

قسم الإله (مردوخ) ملك الآلهة

آلهة الآنوناكى

إلى قسمين

علوى وسفلى

أما لماذا؟ فهو ما يجيب عليه النص بلسان (مردوخ):

أريد حقاً خلق الإنسان

لأنى أريد أن ألقى عليه عناء الآلهة!

حتى تنعم هى بالراحة

ومن ثم يبدو أن الملك الأرضى، قد سوغ استيلاءه على مجمع السلطات بشكل يعطيه تفويضاً مـن قبـل رؤساء المدن وحكامها، إبان عملية التوحيد والمَرْكَزَة، كى يبدو هذا التفويض شهادة منهم وموافقة غير قسـرية فيقول النص:

جمع الإله (مردوخ) الآلهة العظام

وبلطف أمرهم أن يقدموا المشورة

سأضعكم الآن تحت القسم

وأطلب منكم الحقيقة

من منكم تسبب فى نشوب الحرب

(تيامت)!

(تيامت) أثارتها ونظمت الثورة

ربما كان ذلك ترديداً لذكرى قديمة، إبان تداخل المجتمعين الذكرى الأبوى والأنثوى الأمـومى، وسـيادة النظام الذكرى،وربما كانت تيامت رمزاً للنظام الأمومى الذى غبر بسيادة الذكر.

عالم آدم:

وهكذا بات واضحاً أن قصة التكوين السامية (أكدية أو بابلية) والتى اصطلحنا على تسميتها (سفر التكوين البابلى)، لم تختلف كثيراً عن (سفر التكوين السومرى)، بل رددت مفاهيم سومرية حول الآلهة وطبيعتهـا، مـع إضافات وتعديلات تتلاءم مع التطور الذى لحق النظام الاجتماعى، الذى أرسى نهائياً دعائم حكم الذِكر، وعبـادة الذَكَرْ، وغنى عن الذِكر أن ذات قصة التكوين،قد عرفت طريقها إلى التراث السامى فى مختلف مناطق الهـلال الخصيب، مع تعديل طفيف فى التفاصيل دون الأصل،مع تغير خلع الإله الخالق وتنصيب غيره بتغير السـادات، فالإله (آشور) يأخذ دور (مردوخ) عندما تخضع الرافدين للآشوريين، بينما يكون لدى الكنعانيين هو (بعل)، الذى يقوم بمهمة الخلق التى قام بها البعل البابلى (مردوخ) و(إنليل) و(آنكى) السومريين.

وفى مصير الموتى، ظل العالم التحت أرضى قائماً فى مختلف العقائد السامية وفى ذلك يقول (بوتيرو):

«بالنسبة للبابليين بصورة عامة فإن ما بعد الموت لم يكـن مغريـاً لهـم.. وفـى أسطورة نزول عشتار إلى العالم السفلى.. وردت تعابير غير شيقة أبدا عن حالـة المـوتى التعيسة.. إن طعامهم هو من الطين، إن غذاءهم هو من التراب، لا يرون النور أبداً، فهـم يسكنون بالليل».

وحتى عشتار نفسها لم يكن لها القابلية أو الحق فى الدخول بين هؤلاء إلا بعد أن نزعت كل ما يسترها.. قطعة بعد أخرى، وأصبحت على صورة العرى الكامل، الذى يستلزمه الذهاب إلى هذا العالم[١٠٣].

ولهذا السبب كانت «الحياة بالنسبة للبابلى من أعظم وأكثر الآمال، ونعرف منذ العصـر السـومرى أن الملوك والخاصة، الذين أقاموا المعابد وجهزوا الهدايا للآلهة، عملوا ذلك بكل الوضوح، خوفاً على حياتهم، حتى

(١٠٣) بوتيرو: سبق ذكره، ص١٣٠.

تكون هذه الحياة طويلة الأمد، وهذا هو الهدف الذى ينشده الورعون والأتقياء من رجال الـــدين أيضـــاً، فتقـــديم القرابين للآلهة يطيل العمر»[١٠٤].

ويشرح موسكاتى تطابق وجهة نظر البابليين والسومريين فى عالم تحت الأرض بقوله: إنهم اعتقدوا «أن روح الإنسان بعد الموت تنفذ من القبر إلى العالم السفلى أرالو Arallu، وهى مدينة كبيرة يلفها الظلام والتراب، ويعيش فيها الموتى عيشة حزينة كئيبة، يشربون الماء القذر ويأكلون التراب، ولا يمكن التخفيف من هذا الـــبلاء إلا بالقرابين، يقدمها أصدقاء الميت وأقرباؤه،الذين لا يزالون على قيد الحياة»[١٠٥].

ومن هنا يعقب (ديورانت) على فكرة البابليين عن العالم البابلى التحت أرضى بقوله: إن «فكرة البابليين عن الحياة الأخرى، كانت فى جملتها.. فكرة أموات منهم قديسون، وأنذال، ومنهم عباقرة، وبلهاء يـــذهبون إلـــى مكان مظلم فى جوف الأرض»[١٠٦].

هذا بينما يحيطنا (دولابورت) علماً باسم آخر لهذا العالم، إضافة إلى (أرالو) فى قوله: «وبعـــد أن يعـــد الميت إعداده الأخير، يهبط إلى الأدمو، إلى الأرض الكبيرة، مأوى الظلمات.. إلى البيت الذى يدخله الـــداخل ولا يخرج منه، وهو كما تصفه رحلة عشتار.. موضع من الأرض تخيم عليه الظلمات، وتحيط به أسوار سبعة، لكل منها باب واحد، والموتى قد نبتت على جوانبهم أجنحة كأجنحة الطيور، يأكلون التراب ويتغذون بالرغـــام، هـــذه هى المملكة التى يتزعمها نرجال(عرفناه باسم كور عن السومريين)، والإلهة اللاتو (وتعنى اللات وهى مؤنث إل

---

[١٠٤] نفسه: ص١٣٢.

[١٠٥] موسكاتى: سبق ذكره، ص٨٠.

[١٠٦] ديورانت: سبق ذكره، ص٢٢١.

أو إيل).. التى تحت أمرها أرواح الطاعون والأمراض التى ترعى الموت، وتحول فى المعتاد دون عودتهم إلى الأرض للإيقاع بالأحياء»[١٠٧].

ولكن على ما يبدو أن ما طرأ من تطور فى الأوضاع الاجتماعية على الأرض، انتقل إلى ما تحت الأرض، وإلى هناك انتقل التمايز الطبقى الناشئ عن قيام الدولة الملكية المركزية، فنشأ تمايز مماثل فى العالم التحت أرضى، جاء فى الصياغة السامية لملحمة جلجامش السومرية، وبالتحديد فى اللوح الثانى عشر، حيث نجد فى هذا العالم:

أمواتاً عظماء

وأمواتاً حقراء

أغنياء وفقراء

سعداء وتعساء[١٠٨]

وتبقى هنا مسألة، تثيرها طبيعة اللغة السامية التى تعشقت فيها روافد متعددة، فدخلت البابلية ألفاظ سومرية لفظاً ومدلولاً، وتبودلت المعانى والألفاظ بين مختلف اللغات السامية لظروف الجوار والغزو، والعلاقات السياسية والاقتصادية وحتى الدينية، مما أدى إلى تشابك لغوى هائل وإن كنا سنحاول التعامل مع الإشكال فى أسهل الحدود الممكنة: لقد سبق وعلمنا أن السومريين أطلقوا على عالم تحت الأرض اسم إدّين Edin وتنطق أيضا الدين وأدِن، وبما نعلمه عن الخلط القديم بين (الميم) و(النون)، يمكن أن تتحول (أدين) إلى (أديم)، ورأينا البابليين يطلقون على العالم التحت أرضى (آدمو) أو (آدم)، وبما نعلمه عن الخلط بين (العين) وبين (الهمزة)

---

[١٠٧] ك. دولابورت: بلاد ما بين النهرين، حضارة بابل وآشور، ترجمة مارون الخورى، دار الروائع الجديدة، بيروت، ١٩٧١، ص١٩٦.

[١٠٨] بوتيرو: سبق ذكره، ص١٣٢.

تصبح أيضاً (عدم) و(عدن) فيصبح عالم تحت الأرض هو عالم: أدِن، الدين، أدين، أديم، أدمو، آدم، عدم، عـــدن (ولنلحظ ارتباط المعنى القائم بين مختلف الأسماء فكلها تعطى معنى العودة إلى العدم والأصل وهو التـــراب أو الأديم، وآدم من تراب وإلى عدم أو إلى أديم يعود، واللفظ آدم لفظ سامى يدل على أب البشر، جاء فى النصوص الأوجاريتية المكتشفة مؤخراً،وهى لغة سامية فينيقية، وكما فى ملحمة (كارت ملك صيدون):

أب آدم ويقرب (أى ويقترب الأب آدم)

أو ظهر له فى الحلم إيل، فى رؤياه ظهر أبو آدم(١٠٩)

و(آدم) فى هذا تعنى الإنسان أو البشر، وواضح فى النص وراثة الاعتقاد القديم فى عبـــادة الأب الأول، لذلك جاء (إيل) الإله الأعظم فى النص كأب للبشرية، وهو الذى لقب فى ملحمة البعل الأوجاريتية الفينيقية بأنه:

خالق الخلائق..

خالق الكائنات

لطفان (كثير اللطف)

إله الرحمة..(١١٠)

وهى كلها صفات تشير إلى الألوهية ممزوجة بالحنان الأبوى وكان (إل) أو (إيل) يُعَد لدى الفينيقيين الإله الأعلى، ويلقب بـــ(العلى Suprem God)، فهو أبو الآلهة جميعاً، وأبو البشر أيضاً.

---

(١٠٩) السواح: سبق ذكره، ص١١٨،٨٧.

(١١٠) فريحة: ملاحم..، سبق ذكره، ص١٤٧،١٤١،١٢٥،١٢٤.

وإلى جانب (إل) عبد الفينيقيون إلهاً آخر لا يقل عنه أهمية بل هو أقرب إلى الناس من الأب الأول (إل) عرف فى فلسطين باسم بعل، وفى لبنان فى فينيقيا باسم (أدونيس Adonis)، الذى هو (آدون) بعد حذف اليـــاء والسين التى تلحق بأسماء الأعلام أو (آدوم) أو (أديم) أو (آدم) أو (عدم) أو (عدن).

* * *

الباب الثالث

سفر التكوين التوراتى

تأسيس

عندما نبدأ الحديث عن التوراة، فهذا إنما يعنى أننا نتحدث عن أخطر الشعوب السامية، ذلك الشعب ذو الأسماء المتعددة: عبريون، يهود، إسرائيليون.

وقد استطاع هذا الفرع من الشعوب السامية، أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ويحوز شهرة واسعة فى العالم حتى اليوم، نتيجة ارتباط هذا الشعب بالتوراة، تلك المأثرة التى تمكن من إنجازها، وجمع لها مادة دينية هائلة متنوعة، تحت عنوان (الكتاب المقدس BIBLE)، الذى أصبح مصدراً تاريخياً ودينياً لا غنى عنه، للباحث المدقق أو المؤمن المتبتل، على حد سواء، نتيجة كونه الأثر الوحيد الذى وصلنا متماسكاً وشبه جامع لتراث شعوب حوض المتوسط الشرقى بجملة عادات هذه الشعوب وتقاليدها ونظمها الاجتماعية، واعتقاداتها الدينية مع عدد غفير من الأساطير والمتواترات والملاحم والفلكلوريات، لذلك فهو مُعين للمؤمن، كما أنه لاشك مَعين غزير للباحث المنقب أيضاً، لكن مع إشكالية كبرى ناشئة عن كون اليهود قد جعلوا جماعتهم وأربابهم، قطب الدائرة فى هذا الكتاب فنسبوا بطولات الملاحم إلى آبائهم الأوائل أحياناً، أو نسبوا أبطال أساطير شعوب أخرى إلى أنفسهم، وادّعوا النسب السلالى إليهم أحياناً أخرى، فكانت النتيجة مزيجاً هجيناً من ثقافات شتى، تعود إلى الراسب الثقافى لمجموعة كبرى من شعوب المنطقة تلاقحت جميعاً على صفحات الكتاب، ولعب فيها اليهود دور البطولة المطلقة.

والكتاب المقدس المتداول الآن، هو مجموعة الأسفار التى جمعها اليهود، مع ما أضافه إليه المسـيحيون من أناجيل ورسائل مقدسة، وللتفرقة بين المقدس اليهودى، والمقدس المسيحى، داخل الكتاب المقـدس، اصـطلح على تسمية اليهودى (العهد القديم) وتسمية المسيحى (العهد الجديد). ومدار بحثنا هو المقدس اليهودى أو العهـد القديم، لما تضمنه من تراث شعوب المنطقة.

وقد اختلف الباحثون حول ضبط وتوقيت جمع مادة هذا الكتاب التى كانت متناثرة على المتاح آنذاك من وسائل الكتابة، إضافة إلى ما دخل إليه أثناء جمع المادة من تأليف جديد وترتيب جديد، ويذهب (أنـيس فريحـة) إلى أنه «كانت مواد أسفار التوراة من شعر وقصص وأمثال وتاريخ وتعليم دينى فى بادئ أمرها روايات شفهية متداولة جيلاً بعد جيل، إلى أن قيض لها أن تدون فى حدود ٤٤٠ق.م»[١١١].

ويلخص (حسن حنفى) القول فى قوله: «إن أسفار الكتاب المقدس لم يكتبها مؤلف واحـد، فـى عصـر واحد، لجمهور واحد، بل كتبها مؤلفون كثيرون، فى عصور متعاقبة، لجماهير مختلفة المزاج، ويمتد التدوين إلى ألفى عام، وربما أكثر من ذلك»[١١٢].

---

[١١١] د. فريحة : دراسات .. سبق ذكره، ص١٩٨

[١١٢] د. حسن حنفى : (هوامشه علي ترجمة لكتاب اسبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، مراجعة د. فؤاد زكريا) دار الطليعة، بيروت ط٢، ١٩٨١، ص٢٨ .

هذا إضافة إلى الإقرار الواضح في مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس لسنة ١٩٦٠، الذى يقول: «ما من عالم كاثوليكى فى عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف على وضع النص الذى كتبه عديدون من بعده، بل يجب القول: إن ازدياداً تدريجياً حدث، سببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية».

وقد حاول بعض العلماء تحديد الفترة الزمنية التى استغرقها زمن تدوين الكتاب المقدس، فطالت المسافة وامتدت ما بين بداية القرن العاشر قبل الميلاد وانتهاء بالقرن الأول الميلادى، وذهب هؤلاء إلى أن الأسفار الخمسة الأولى قد كتبت على مدى ثلاثة قرون ابتداء من القرن العاشر قبل الميلاد، أما آخر الأسفار وهو سفر المكابيين الأول، والثانى،فقد حررت خلال القرن الأول قبل الميلاد(١١٣).

أما موسوعة تاريخ العالم، التى أشرف على تحريرها عدد لا يستهان به من العلماء، فقد أكدت أن فى هذا الكتاب أجزاء ألفت ما بين ١١٥٠ ق.م وبين ١٣٠ق.م، وأجزاء أخرى كالأسفار الخمسة الأولى، قد أخذت صورتها النهائية حوالى عام ٤٠٠ق.م، وتحوى كتابات يرجع تاريخها الشفاهى إلى ستة قرون سابقة على هذا التاريخ، بينما الأسفار التاريخية قد كتبت سنة ٥٥٠ ق.م مع

تصنيفات أخرى للكتاب، قدمت لها الموسوعة اقتراحات بتواريخ مختلفة ومتباعدة تباعداً كبيراً(١١٤).

---

(١) السواح: سبق ذكرة، ص١٠٨.

(١) وليم لانجر (وآخرون) : موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة د. محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت ص٦٦.

وكما هو ملاحظ، فإن أكثر الباحثين يطلق على هذا التراث الهائل اصطلاح التوراة، إلا أن التوراة تقتصر ــ لوجه الحق ــ على جزء يسير من الكتاب المقدس، هى الأسفار الأولى منه المنسوبة إلى النبى موسى، وهى: التكوين Cenesis، الخروج Exudus، اللاويين أو الليفيين Levetieis،العدد Numbers، التثنية Deuteronomy ومن الباحثين فى العلوم التوراتية، من يدخل فى أسفار موسى السفر السادس (يشوع).

ونحن بدورنا سنستخدم هذا الاصطلاح (التوراة) فى عملنا هذا، تجاوزاً لأن بحثنا سيتركز فعلياً على الأسفار الست الأولى من الكتاب المقدس.

ومن المهم الإشارة إلى أنه لا يوجد باحث علمى ذو شأن، ذهب وراء القول أنها أسفار موسى، أو أن موسى كتبها،إنما هناك إجماع على أنها ألفت بعد موسى بقرون طويلة، وأنها نتيجة تصانيف مختلفة، لمؤلفين مختلفين مزاجاً ومشرباً. وتدلل مدرسة (فلهاوزن Willhawsen) على ذلك بأدلة أهمها وأخطرها أن اسم الإله يختلف

فى هذه الأسفار ما بين سفر وآخر، إضافة إلى تكرار القصص فيها، مما يشير إلى عدد من الكتاب لم يلتقوا لتصفية الأمر بينهم، مع فروق واضحة وجوهرية وعميقة فى اللغة وفى الأسلوب بين هذه الأسفار(١١٥).

والتوراة تبدأ تاريخ اليهود منذ فجر الإنسانية على الأرض، فتأتى بشجرة النسب اليهودى من جذرها الأول المسمى فى اللغة العربية (آدم)، ومنه تشعبت الأنساب شعاباً، أهمهم فى التوراة فرع من الشجرة البشرية هو الفرع السامى، بل هو غصن فى هذه الشجرة هو الغصن اليهودى، أو كما يحلو لهم أحياناً تسمية أنفسهم

(١) موسكاتي: (عن فلهاوزن) سبق ذكره، ص١٥٧.

الشعب العبرى، واللغة المنسوبة لهذا الشعب والتى كتب بها أهم أجزاء التوراة،هى المعروفة باللغة العبرية، بينما العبرية هى ما عبرت عنها التوراة بأنها (شفة كنعان) أى لسان الكنعانيين، حتى أن الكلمة آدم، وقد عرفناها قبل التوراة، كلمة كنعانية فينيقية فى مدونات (أوغاريت).

ولنلحظ أن التوراة لم تحاول أن تنكر أن لسانها مأخوذ عن لسان الكنعانيين، ولم تحاول أن تنكر أنه قـد سبقهم فى هذه الأرض شعب هو الشعب الكنعانى. وأطلقوا على الأرض فى التـوراة أرض الكنعـانيين،وأرض الفلسطينيين ويزعم الباحثون أن الكنعانيين رغم أنهم أسبق فى التواجد بفلسطين، فإنهم بدورهم كانوا هجرة قدمت إلى فلسطين من شبه جزيرة العرب حوالى ٢٥٠٠ق.م.

وإذا كان منهجنا فى البابين السابقين،قد حاول أن يربط بين تطور العبادات فى بلاد الرافدين وبين التطور الاجتماعى والسياسى والشكل الاقتصادى،فإن مثل هذه المحاولة مع التاريخ اليهودى أمر يستعصى على البحـث تماماً، لعدة أسباب أهمها:

مشكلة التتبع الزمنى الصادق لأسفار التوراة، التى لم يراع فى ترتيبها منهج محدد.

الغموض الذى أحاط بمعانى الألفاظ التوراتية، ومقصد التوراة الحقيقى منها، وهو أمر فيه جدال وخُلـف كبير، بين الباحثين التوراتيين مما أدى ـ حتى الآن ـ إلى تباعد شديد فى تفسير النص الواحـد، بـل وأحيانـا الكلمة الواحدة، إضافة إلى أن التوراة تغص بأسماء أماكن قديمة على خريطة المنطقة، يصل عددها إلى الآلاف، لم يستطع عالم جاد واحد حتى اليوم، أن يجزم بالمكان الحقيقى الصادق، ولو لعشر منها فقط، كمـا لـم تعطنـا

البحوث الأركيولوجية، ولا أى حفريات، دلائل صادقة على موضع قديم يمكن القول المؤكد أنه موضع الآن فـــى فلسطين المظنون أنها كنعان التوراتية.

وزيادة على ذلك، ونكاية فى إخلاص الباحث الجاد، نجد مدونات التوراة قد ظلت زماناً طويلاً خالية من التنقيط والتشكيل، إضافة إلى اختلاط النطق فى الحروف العبرية ذات المخرج الواحد: الشفاه، الأسنان، الحنجرة، اللسان، الحلق، مع غياب الأزمنة: الحاضر، الماضى الناقص، الماضى التام، المستقبل السابق فى

الصيغة الإخبارية، ناهيك عن غياب الحروف المتحركة، ولم يتم وضع ذلك كله إلا أيام الحشمونيين قبل الميلاد بحوالى قرنين من الزمان، وفق قواعد اللغة الآرامية، مما أدى إلى لبس وأخطاء لا مزيـــد عليهـــا، ممـــا يجعل قراءة أى كلمة اليوم فى التوراة، موضع حذر وشك كبير[١١٦].

إن اليهود لم يكونوا خلال تاريخهم جماعة واحدة مستقرة فى مكان واحد إنما كانوا جماعـــات مختلفـــة، مرتحلة دوماً إلى جهات مختلفة، ما بين الرافدين وجزيرة العرب وكنعان وحاران ومصر.. الخ، حتـــى دولـــتهم التى قامت مع بداية الألف الأول قبل الميلاد لم تستمر فى الوجود زمناً مناسباً يسمح بنضوج أو تطور اجتماعى واضح محدد البصمات، يمكن للباحث تتبعه.

إن عدم الاستقرار فى مكان واحد مدداً طويلة، أدى إلى تغيرات مستمرة فى العقائـــد والعبـــادات، التـــى أخذت تصطبغ مع كل ارتحال بألوان متعددة، فجاءت ديانتهم بعد جمعها مزيجاً متنـــافراً مـــن الألـــوان عديمـــة

[١١٦] د، حسن حنفى: سبق ذكره، ص٣٨.

الاتساق والتمازج،مما أدى بباحث متحيز لليهود مثل (إيفارلسنر)إلى القول عما خرج به مـن دراسـة الكتـاب المقدس: «إن تابوت العهد[١١٧] يعود بنا إلى مساكن آلهة النيل المتنقلة، وآثار السحر

ترجع بنا إلى مصر كما تذكرنا قصة الطوفان والأرقام الغامضة ببابل، ويصير الإله البـابلى جلجـامش نمروداً، وتصبح ثيران آشور المجنحة كروبيم العبريين، كما أن أسطورة الجنة وشخصية الشـيطان أهريمـان، وعالم الملائكة ورؤساء الملائكة تعيد إلى أذهاننا بلاد الفرس، ونتعرف على البعل إله الفينيقيين والكنعانيين فـى أسماء إشبعل ومربعل.لقد كان الفلسطينيون الذين يحتمل أن يكونوا قد وفدوا أصلاً من كريـت، ينظـرون إلـى اليمامة أصلاً كإله، أما السمكة التى عُبدت فى عسقلان فتظهر فى قصة يونان»[١١٨].

تاريخ اليهود فى التوراة:

---

[١١٧] تابوت العهد أو تابوت الشهادة: هو تابوت أمر الإله (يهوه) نبيه (موسى) بصنعه وفق مواصفات محددة فيما تزعم التوراة،بهدف أن ينزل الإله ويستقر فيه، فيحمله اليهود معهم أينما حلوا أو ارتحلوا، ليتمكن من الاطلاع على أحوالهم = عن كثب،ومن ثم يتمكن من مـد يـد العـون الفورية لنصرتهم على أعدائهم،وعند حط الرحال كان هذا التابوت يوضع فى خيمة خاصة سميت خيمة الاجتماع، حيث يجتمع فيها موسى بربه بعيداً عن أعين المتطفلين،وهناك يتشاور الرب والنبى،ويتلقى النبى توجيهات الرب وأوامره،وقد استطاع الفلسطينيون عند دخول اليهود بلادهم، أن ينتزعوا هذا التابوت من اليهود خلال معركة عنيفة،فكانت النتيجة أن الرب الراقد فى= =التابوت لم يميز بين الفلسطينيين واليهود، إنما وقف إلى جانب من يحملونه فى رحلهم وانحاز للفلسطينيين الذين أمكنهم الاحتفاظ بتابوته، فنصرهم على اليهود،ولم يتمكن اليهود من استعادة النصر إلا عندما استطاع داود النبى استعادة التابوت بعد معركة شرسة مع الفلسطينيين، وقد وردت إشارة لهذا التابوت فى القرآن الكريم، حيث قالـت الآيات عن شرعية ملك الملك داود:(إن آية ملكه، أن يأتيكم التابوت، فيه سكينة من ربكم) (البقرة ٢٤٨).

[١١٨] د. ايفار لسنر: الماضى الحى، حضارة تمتد سبعة آلاف عام، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، مراجعة د. محمد أبو المحاسن عصفور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١، ص١٤٢.

تزعم التوراة أن اليهود هم نسل اثنى عشر ولداً هم الأسباط، أبناء النبى (يعقوب) المسمى (إسرائيل)، ومن هنا سموا (بنى إسرائيل)، وحتى تجعل التوراة من هذا النسل خلاصة البشرية، ومدار حديثها المقدس فإنها تجرى تصفيات عجيبة بين الشعوب، سنلاحظها مع خطونا داخل التوراة.

تبدأ التوراة تاريخ اليهود بالعودة إلى بداية الإنسانية لإنسانيتها على الأرض، فتحكى لنا رواية تقول: إن الله خلق زوجين من البشر، ووضعهما فى مكان أطلقت عليه (جنة عدن)، وإن هذا المكان كان على هذه الأرض ذاتها، لكن الزوجين البشريين ارتكبا خطيئة عظمى،عندما عصيا أوامر الإله فى أمر هائل؟ فقد أكلا من ثمرة شجرة حرمها عليهما!! فثارت ثائرة الإله، وطردهما من هذا المكان إلى مكان آخر على الأرض، شرقى عدن. وأنجب الزوجان البشريان الأوائل،اثنين من الذكور هما هابيل الذى اشتغل بالرعى، وقايين الذى عمل فى الأرض فلاحاً (ويبدو أن ذلك تسجيل قديم لبداية التخصيص فى العمل، وفق ظروف البيئة، والصراع الذى نشأ بين هذين النظامين) وقام الأخوان يقدمان للإله القرابين لإرضائه، فقدم هابيل من لحم غنمه، وقدم قايين من زرع أرضه. وكما سيتضح فيما بعد، فإن الإله كان على ما يبدو من اللواحم، فقبل قربان هابيل،ورفض قربان قايين (والتحيز هنا واضح للبداوة والنظام الرعوى، ولنتذكر أن اليهود بدو رعاة)،مما أوغر صدر

قايين الفلاح، على أخيه الراعى، فقتله، ثم يختفى ذكر قايين من التوراة، ليظهر ابن ثالث لأبى البشرية المدعو آدم، هو (شيث)، ومن شيث تناسلت البشرية وتكاثرت على الأرض. (وهكذا كان واضحاً أن دور هابيل وقايين لم يكن له أى علاقة بالتكوين، بعد أن مات هابيل وتبعه قايين وجاءت البشرية من أخ ثالث هو شيث وهو ما يؤكد أن قصتهما إن هى إلا تسجيل بدئى وتفريق بين نظامين، أقربهما إلى الإله هو الرعوى).

ومرة أخرى يعصى النسل البشرى ربه، فيقرر الرب إفناء مخلوقاته العاصية دوماً، بالطوفان، ورغم تأكيد التوراة المتواتر على ندم الإله المستمر لخلقه البشر، فإنه مع ذلك، يضمر بينه وبين نفسه الإبقاء على بذرة الحياة،فيختار من بين نسل (شيث) فرداً واحداً هو (نوح)، ويخبره بقرار الدمار الذى انتواه، ويأمره أن يصنع فلكاً، ويجمع فيه من كل الأحياء، وأن يأخذ أبناءه معه، وتستمر القصة فتعلمنا بتفجر الأرض بالعيون، وتفتح أبواب السماء بماء منهمر، مما أدى إلى طوفان عاتٍ، حمل السفينة النوحية بركابها، الذين تم اختيارهم عشوائياً، بينما فنى كل حى آخر على البسيطة، وانتهى الأمر بالسفينة بعد هدوء الغضب الإلهى، إلى التوقف فوق جبل (أرارات)، قرب بحيرة (فان)، إلى الشمال من بلاد الرافدين، داخل بلاد أرمينيا.

ثم تأخذ التوراة طريقها فى تمييز النسل اليهودى المرتقب، كسيد للبشرية وشعب خاص من بين الشعوب الأخرى، فتقول:

«وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك: ساماً، وحاماً ويافث، وحام هو أبو كنعان، وهؤلاء الثلاثة هم أبناء نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض ــ تكوين٩-١٤-١٥»

ولأن اليهود يعدّون أنفسهم ــ فى الأسطورة ــ أبناء سام، فكان لابد من التصفية،التى بدأت باستبعاد حام وبنيه من التاريخ المقدس، وهو فى التوراة أبو كل من (كوش) أو الزنوج، و(مصرايم) أبو المصريين و(كنعان) أبو الكنعانيين، أصحاب الأرض المطلوب الاستيلاء عليها، لبنى سام. ولا مجال للاستبعاد، إلا أن يأتى حام وبنوه منكراً، لخصته التوراة فى القول: إن نوحاً بعد هبوطه من السفينة، قد شرب خمراً حتى ثمل،وتعرى من ثيابه ثم غاب عن وعيه «فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه..فأخذ سام ويافث الرداء.. وسترا عورة أبيهما.. فلما استيقظ

نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته، وقال مبارك الرب إله سام، ليفتح الله ليافث، فيسكن فى مساكن سام، وليكن كنعان عبداً لهم ــ تكوين٩-٢٠:٢٧».

وواضح من هذه التصفية الأخلاقية، والتى كان الملام فيها أصلاً ــ حسب الرواية التوراتية ــ نوح ذاته، القصد باستبعاد الكوشيين الأحباش والمصريين من التركة المقدسة، مع التركيز على استبعاد كنعان بن حام بوجه خاص مع خصه باللعنة والعبودية لسام، رغم أنه لم يشاهد العورة النوحية ولم يرتكب ذنباً، إنما كان الذنب

ذنب الجد الذى سكر، وذنب الأب حام الذى شاهد هذه العورة وعاينها.

ثم تمطر التوراة بركاتها على الابن سام بالتحديد والخصوص، بحسبانه الجد البعيد لليهود، ثم تركز جهودها بعد ذلك، وطوال أسفارها حول نسله المجيد، فتخبرنا أنه أنجب كل بنى عابر، وتعدد بنى عابر بأنهم: (عيلام) أبو الإيرانيين، و(آشور) أبو الرافديين، و(أرفخشد) أبو الأرمينيين، ثم تصطفى من بينهم (أرفخشد) الذى أنجب شالح، وأنجب شالح عابر، وأنجب عابر فالج، ويقطان أبو حضرموت(ولا ندرى سراً لهذا الخلط بين أناس يعيشون فى أقصى الشمال، فى (أرمينيا)، وأناس يعيشون فى أقصى الجنوب، فى (حضرموت)؟!

(عند مراجعتنا للبروفة الأولى لطباعة هذا الكتاب كنا قد انتهينا من كتاب: النبى إبراهيم والتاريخ المجهول ــ دار سينا ــ ونظن أننا قد كشفنا فيه السر وراء هذا الخلط).

أما فالج أخو يقطان، فقد كان هو الفرع المبارك فى الشجرة المباركة فهو جد النبى (إبرام) أو (إبراهيم) الذى أنجب بدوره إسماعيل وتقرر التوراة استبعاد إسماعيل، فتقول: إن إبراهيم قد أنجبه من جاريته هاجر، وأن

الأمر لم يرق لسارة زوجة إبراهيم، فأمرت بطرد الجارية وولدها فأخذهما إلى بادية من البوادى، وتركهما هناك، حيث ترعرع إسماعيل واستوطن فى تلك البوادى

نهائياً، تاركاً الأرض للنسل الآتى،فقد أنجبت سارة ــ حسب الرغبة التوراتيةــ إسحق الذى تم اسـتبقاءه فى المصفاة التوراتية ليكون جداً لليهود.

وأنجب إسحق ولدين هما: (عيسو) البكر، ثم (يعقوب)، وحسب منطق القواعد السامية، كان المفترض أن يكون البكر (عيسو)، هو وريث النبوة والأرض والأملاك، لكن الذى حدث فى التوراة هــو العكــس، بعــد أن استخدمت مصفاتها مرة أخرى لاستبعاد البكر، واستبقاء آخر العنقود (يعقوب)، الذى سيكون هو (إسرائيل) أبــو الأسباط أو بنى إسرائيل، وقد أوردت التوراة ذلك فى أسلوب طريف، فى قصة أطرف، لا يصح تجاوزها.

تقول القصة:

فكبر الغلامان، وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد، إنسان برية، ويعقــوب إنســاناً كاملاً يسكن الخيام، فأحب إسحق عيسو، لأن فى فمه صيداً، وأما رفقــة (الأم) فكانــت تحب يعقوب..وحدث لما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر،أنه دعا عيسو ابنه الأكبــر فقال: هأنذا، فقال: إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى فالآن خــذ عــدتك، جعبتــك وقوسك، واخرج إلى البرية،

وتصيد لى صيداً، واصنع لى أطعمة كما أحب، وأتنى بها لآكل، حتى تباركــك نفسى قبل أن أموت، وكانت رفقة سامعة.. فكلمت يعقوب ابنها قائلة.. يــا بنــى اســمع لقولى.. اذهب إلى الغنم، وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى، فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب، فتحضرهما إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته فقال يعقوب لرفقــة أمه: هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس، ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيــه كمتهاون، وأجلب على نفسى لعنة لا بركة.. فأخذت رفقة ثياب عيســو ابنهــا الأكبــر الفاخرة.. وألبست يعقوب ابنها الصغير، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديى المعزى، وأعطت الأطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها، فدخل إلى أبيه وقال يــا أبــى فقال ها أنذا من أنت يا بنى، فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، فقد فعلت كما كلمتنــى، قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك فقال إسحق لابنه ما هذا الذى أسرعت لتجد يا بنى؟

فقال: إن الرب إلهك قد يسر لى؟!!

فقال إسحق ليعقوب:تقدم لأجسك يا بنى، أأنت هو عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه، فجسه.. ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه، فباركه.. فقال له إسحق أبوه: تقدم وقبلنى يا بنى، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه، وقــال: انظــر رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب،فليعطك الرب من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر،ليُستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل، كن سيداً لإخوتك، وليسجد لــك

بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين، وحدث حين فرغ إسحق من بركة يعقوب.. أن عيسو أخاه أتى من صيده.. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرة جداً، وقال لأبيه: باركنى أنا أيضاً يا أبى، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك. (تك ٢٧-١:٣٥)

حقيقة، إن هذا النص ذكرى وتسجيل واضح للتطور التاريخى والاجتماعى فقد قرر انتهاء زمن الصيد والمجتمع غير المستقر، وظهور المجتمع المستقر (عيسو كان إنساناً يعرف الصيد، إنسان برية، ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام)، ورغم تمسك الأب بالصيد والنظام القديم، فقد كان لابد من الانتقال ولو بالخديعة.

المهم أن التوراة وهى تجرى التصفيات النهائية بين الشعوب، لتصل إلى الشعب اليهودى، تجعل يعقوب أهم آباء اليهود بعد إبراهيم، نتيجة حدث خاص تعرض له يعقوب، يفسر لنا سر تمسك الإله بهذا الشعب كمختار له دون البشر،إذ أن يعقوب التقى بالرب ودخل معه فى معركة انتهت لصالح يعقوب،أو كما تقول التوراة:

فبقى يعقوب وحده،وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه، وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركنى، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت، وسأله يعقوب وقال: أخبرنى باسمك، فقال: لماذا تسأل عن اسمى، وباركه هناك، فدعا

يعقوب اسم

المكان فينيئيل، قائلاً: لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسى، وأشرقت لـــه الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه، لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على الفخذ إلى هذا اليوم،لأنه ضرب حق فخذيعقوب على عرق النسا. (تك٣٢-٢٢:٣٢)

وهكذا تحول الاسم (يعقوب) إلى (إسرائيل)، أو (صراع إيل) أو مصارع الرب أو الذى صـــرع الإلـــه، وأنجب (إسرائيل) اثنى عشر ولداً هم الأسباط بنو إسرائيل، وكان أشهرهم أصغرهم سناً وأكبرهم شأناً (يوسف).

أما مصدر شهرة يوسف فى التوراة فهو أنه كان جميلاً جمالاً فاتناً؟! والثانى أنه كان كثيـــر الأحـــلام؟! والثالث أنه كان مفسراً أيضاً للأحلام؟! مما أثار موجدة إخوته الذين كادوا له، حتى انتهى بكيدهم عبداً فى بـــلاد مصر لكن قدرته على التبصير وقراءة الطالع فى الأحلام، أدت إلى ذيوع صيته فى البلاط الملكى، حتى تمكـــن بقربه من صاحب العرش أن يصبح وزيراً لخزانة المصريين،وبهذا المركز تمكن من استجلاب أبيه وإخوته إلى مصر، فى وقت حل فيه الجفاف بالأرض، وفى مصر عاشوا زماناً تكاثروا فيه وتناسلوا وعلا شأنهم.

لكن الحال لم يستمر على حاله، فقلب لهم الفراعنة ظهر المجن، واتخذوهم عبيداً مسخرين فى الأعمـــال الشاقة، حتى ظهر (موسى) النبى وهو فى زعم التوراة أحد أحفاد سبط (ليفى) أو (لاوى) أحد أخوة يوسف وهو الذى قدر له قيادة اليهود للهرب من مصر إلى كنعان، فى أشهر الرحلات فى التاريخ، تلـــك المســـماة (رحلـــة الخروج).

وقد قدر لهذا النبى حسبما جاء بالتوراة أن يكون صاحب مغامرات كبرى شهيرة، منــذ مــيلاده وحتــى مماته، فقد ولد فى ظروف صعبة، كان مطلوباً فيها بأمر فرعون مصر، قتل من يولد فى هذا العام من ذكــور، فألقته أمه فى اليَم لكن أقدار (الميلودراما) ساقته إلى قصر فرعون حيث عثرت عليه ابنة فرعون، فاتخذته لهــا ربيباً، لكنه كان يعرف أصله العرقى، مما دفعه يوماً للانتصار لأحد اليهود من بنى جلدته، فقتل بسبب انتصــاره لعصبيته مصرياً دون أن يتحقق حتى من موضع الحق، فكان أن طلبه القانون للقصاص فهرب إلى بلاد تســمى (مديان)، حيث التحق هناك بضيافة كاهنها المدعو (يثران)، وصاهره فتزوج ابنته،وهناك قابله رَب اليهود فــى جبل أسمته التوراة جبل الله (حوريب)، حيث أمره بالعودة إلى مصر، مدعماً بعدد من الخوارق، ليقــود شــعبه المختار من مصر فى رحلة خروج، أو رحلة عودة إلى كنعان.

ويظن المؤرخون أن بداية بنى إسرائيل الحقيقية،هى مع رحلة الخروج حوالى ١٢٠٠ق.م، بعد أن قضوا فى مصر حوالى أربعة

قرون، لكن موسى لم يحظ بدخول أرض كنعان، حيث تخبرنا التوراة أنه قد مات ودفن وهو مــن أرض الميعاد قاب قوسين أو أدنى، وخلف على القيادة رجلاً دموياً، هو (يشوع بن نون)، الذى اشتهر بالقسوة المرعبة، وبمعجزات كالمعجزات الموسوية كفلق البحر، لكنه زاد عليها بالتخصص فى معجزات يشوعية، منهــا إيقــاف الشمس والقمر فى مكانيهما،حتى يتمكن من الانتصار على أعدائه.

ومن بعد يشوع، استمر اليهود يعيشون زماناً،على هامش حياة الكنعانيين فى الوقت الــذى يــزعم فيــه الباحثون قدوم أقوام إيجية من جزيرة كريت، باسم الفلسطينيين، ليستوطنوا الساحل الكنعــانى، ويكســبوا أرض

كنعان اسمها (فلسطين)، مما خلق أمام اليهود عقبة جديدة، فبدأ صراع طويل بين الشعبين، استطاع اليهود بعد انتصارهم فيه أن يقيموا لهم ملكاً ودولة، كان أول ملوكها (شاؤول) ثم تلاه على العرش الملك (داود)، الذى استطاع أن يكسر شوكة الفلسطينيين بشكل حاسم، مما أتاح للدولة الناشئة الاستقرار، وهيأ لوريثه الملك (سليمان) الفرصة ليبلغ بالدولة أوج شهرتها.

ويقول (موسكاتى) إن داود «أعاد إلى إسرائيل حظها الضائع وكان جلوسه على العرش حوالى عام ١٠٠٠ق.م وكان قد بدأ بتكوين دولة صغيرة خاضعة للفلسطينيين، ولكن مقدرته فى الحرب والسياسة معاً أكسبته الاستقلال، وأقامته ملكاً على إسرائيل مكان أسرة شاؤول وبالاستيلاء على القدس، واستعادة تابوت العهد، صار للدولة الناهضة من جديد، مركزها السياسى والدينى.. وكان سليمان

بن داود.. شديد الاختلاف عن أبيه، فقد أحدث تغييراً جوهريا فى كل حياة المملكة وأعاد تنظيم المملكة على نمط الممالك المطلقة السلطان، فى الشرق الأدنى القديم، فالأبهة والترف فى البلاط، وكثرة الزوجات والجوارى التى كانت تتطلبها اعتبارات الدبلوماسية والسمعة، والتى قدر كما تقول التوراة أن تشغل قلب الملك، ثم ازدياد مؤامرات القصور.. اضطرت سليمان إلى إقامة نظام من الضرائب،ألقى على شعبه عبئاً ثقيلاً.. وكان إنشاء المعبد الكبير فى أورشليم القدس، أشهر ما قام به سليمان من أعمال عامة، وقد ضم هذا العمل الفخم عناصر قيمة من كنعان فينيقية وغير فينيقية، وكذلك من مصر وأرض الرافدين.. وانتهى نفوذ العبريين بموت سليمان»[١١٩].

[١١٩] موسكاتى: سبق ذكره، ص ١٤٣،١٤٤.

وقد قيض للملك سليمان، أن يحوز فى مقدسات المنطقة وتاريخها، شهرة لا تضارع، ربما لأنه أشهر ملوك اليهود، وربما لأنه ضرب بالأنبياء المتنبئين عرض الحائط ــ كما تقول التوراة ــ ولم يسر وراء الشعوذات وركز اهتمامه فى الشئون الدنيوية وفق خطط عقلانية، فتغنوا بحكمته وربما أضاف إلى ذلك ميوله الفنية التى دفعته إلى بناء قصره، والهيكل وفق أحدث الطرز المعمارية، فجلب لهذا الغرض فنانين من مختلف الأقطار المحيطة بدولته،

وأشرف بنفسه على عمليات البناء والنحت والتشكيل والتجميل والنقش.

أما الباحث أحمد سوسة فيقول: «أما الوصف الذى اعتاد الباحثون ترديده عن اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات، التى درجت عليها دويلات تلك العصور، والحقيقة أن مملكة سليمان التى تبجح بعظمتها، كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر، قائمة على حراب أسيادها الفراعنة.. وكان سليمان يريد أن يجارى الفراعنة فى البذخ، والظهور بما هو فوق طاقاته وإمكانياته الاقتصادية.. فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب.. ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض الفلسطينيين الساحلية، طلب معونة فرعون مصر، فأرسل جيشاً مصرياً صغيراً احتلها له وسلمها إليه، مهراً لابنته».

ثم يتساءل (سوسة): «كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان، صورة تفوق الواقع بكثير.. فسليمان لم يكن وهو فى أوج مجده إلا ملكاً صغيراً يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال،بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم».

ويجيب (أحمد شلبى) على التساؤل، فيوضح الأسباب التى أدت إلى هذه الشهرة بقوله: «إن أمور مصـــر فى عهده كانت مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة

الآشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا لداود شيئا من حرية الحركة والنشـــاط، والتبســـط فـــى ممارســـة السيادة»، أما ما جاء عن «قصة ملك سليمان وحكمته»، التى أوردها الكتاب المقـــدس، فقـــد تعرضـــت لحشـــو وإضافات على نطاق واسع،على يد كاتب متأخر شغوف بالمبالغة، فى وصف رخاء عصر سليمان، موله بتمجيد حكمه.. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحى،بل والإسلامى، على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة.. لكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثانى أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهينات.. أما مملكته فهى رهينة تتجاذبها مصـــر وفينيقـــا، وترجع أهميتها فى معظم أمرها، إلى ضعف مصر المؤقت[١٢٠]. (ومن المناسب أن نوضح من جانبنا أنـــه لـــم يكتشف نص واحد حتى الآن، لا فى مصر، ولا فى نصوص الرافدين، يشير من بعيد أو قريب، إلى ملك باســـم سليمان أو داود أو شاؤول، وهو أمر غريب بالقياس إلى ما ادعته التوراة عن شهرة المملكة السليمانية!!).

والمهم أن هذا النفوذ السليمانى المزعوم، قد انتهى بانقسام المملكة من بعده إلى دويلتـــين: واحـــدة فـــى الشمال سميت إسرائيل وعاصمتها السامرة، وأخرى فى الجنوب سميت يهوذا وعاصـــمتها أورشـــليم،ولم تلبـــث المملكة الشمالية أن وقعت فى قبضة الرافديين الآشوريين، بعد أن سحقها العاهل الآشورى سرجون الثانى،بينمـــا

---

[١٢٠] د. أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ، دار العربى للإعلان والطباعة والنشر، ط٢، دمشق، ص٢٦٩،٢٩٧، وقد لحظنا أن د. سوسة اقتبس هذه المادة جميعها عن د. أحمد شلبى فى كتابه: مقارنة الأديان، اليهودية نشر مكتبة النهضة المصرية، ط هـــ القـــاهرة ١٩٧٨،ص٥٦. وأن د.شلبى بدوره قد اقتبسها عن ويلز فى Wells: Hsitorgof the world, ٩٣ the out line of History vo L٤. PP. ٢٠٤-٢٠٧.

انتهت المملكة الجنوبية يهوذا إلى المصير ذاته على يد العاهل البابلى الكلدانى نبوخذ نصر الثانى، وذهب ألــوف من كليهما أسرى إلى بابل وآشور، وهناك ظلوا فى الأسر حوالى أربعة قرون.

وفى العقود الأخيرة من القرون الأربعةظهرت فى الأفق دولة كبرى جديدة فى إيران هى دولة الفــرس، بقيادة رجل حديدى غير عادى هو (كورش)، الذى اتجهت طموحاته إلى الاستيلاء على بلاد المشــرق وتكــوين إمبراطورية كبرى، وكان لحنكته السياسية دورها الحاسم فى تحقيق أحلامه، فقد قبل عروضاً بتعــاون اليهــود وعلى رأسهم (أشعيا) و(إرميا)، بموجب شروط ومطالب محددة لليهود، وعلى رأســها تحريــرهم مــن الأســر وعودتهم إلى أرض كنعان لإقامة هيكلهم ودولتهم مجدداً، مما انتهى بفتح أبواب بابل للفرس.

و«يخبرنا المؤرخ اليهودي يوسفيوس[١٢١]أن كورش أرجع كل انتصاراته إلى الرب الــذى يــؤمن بــه اليهود،لذلك صمم على إعادة بناء

بيت له فى القدس..وتشير المصادر اليهودية إلى أن كورش قام بإعادة اليهودالمرتحلين من بابــل إلــى القدس مجدداً خلال العام الأول من احتلاله لها، وقد فرح اليهود بذلك واعتبروه المسيح المنتظر ونقرأ فى ســفر إشعيا:هكذا يقول الرب لمسيحه كورش.. الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وملوكاً..لكى تعــرف أنــى أنــا الرب الذى يدعوك باسمك إليه، إسرائيل (إشعياه٤٥-٣) ويقول العهد القديم بأنه تزوج إستر اليهودية وجعلها ملكة على بابل»[١٢٢].

---

[١] يوسفيوس:Filavius Josepheus أشهر المؤرخين اليهود فى القــرن الأول المــيلادى وينحــدر مــن ناحيــة الأم مــن ســلالة الأمــراء الحشمونيين،الذين حكموا فى فلسطين قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة، وهم الذين قاموا بضبط وتنقيط كلمات الكتاب = المقدس، وفــق قواعــد اللغــة الآرامية، ويوسفيوس يعد من ناحية الأب فرداً فى السلك الكهنوتى، وقد ولد فى فلسطين فى الموضع المزعوم أنــه (أورشــليم) حــوالى عــام ٣٧ق.م، وقاد ثورة كبرى لليهود ضد الاحتلال الرومانى، واعتقل،ثم أفرج عنه سنة ٧م، وبعدما عاش فى عاصمة الامبراطورية (روما) يكتب ويؤلف، حتى مات هناك عن ٩٨ عاما، وأهم ما تركه لنا مؤلف من سبعة أجزاء يروى تاريخ اليهود النضالى، بعنوان (حروب اليهود) وقد كتبه باللغة العالمية آنذاك،الآرامية، كما ترك لنا (تاريخ اليهود القديم) فى عشرين جزءاً من بداية الخليقة وحتى عام ٦٦م.

[١] عبد الحميد العلوجى وآخرون: شخصية نبوخذ نصر الثاني، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٢، ص٥٨، ٥٩، ٦٤.

ورغم أن (قورش Cyrus) قد حاز فى التوراة على كل اصطلاحات الود، فأصبح هو (المسـيح) وهـو (راعى اليهود ــ إشعيا٤٤–٢٨)، وناداه رب اليهود باسمه، فإن سفر إشعيا يؤكد أن (قورش) لـم يعـرف رب اليهود (إشعيا٤٥–٥،٤)، إلا أن المهم فى الأمر هو إصدار قورش سنة ٥٣٨ ق.م، قرارا برجوع اليهـود إلـى الأرض المقدسة، وإعادة بناء معبد أورشليم الذى ظل قائماً حتى دمره الرومان نهائياً حوالى عام ٧٠م.

الآلهة التوراتية:

وهكذا لا يعود مستغرباً أن نجد الدين اليهودى قد مر بأطوار لا يحكمها منطق محدد، قدر مـا تحكمهـا ظروف أخرى أهمها التأثر بمختلف عقائد شعوب البلدان التى عاش فيها اليهود أزماناً طويلة، سواء فـى الـبلاد الكنعانية أو المصرية أو الرافدية، أو أى موطن آخر استقروا فيه بضعاً من الزمن، ومن هنا يمكن لأى باحث ــ بقليل من الجهد ــ أن يجد فى التوراة مآثر مصرية وأخرى رافدية وثالثة فينيقية، أو أن يجـد طبيعـة التأليـه تتضارب ما بين التأثر بآلهة الخصب والزرع والرى، وبين آلهة الصحراء والجبال والبـراكين، وبـين فجاجـة الاعتقادات والطقوس الابتدائية، وبين قمة التطور فى مفهوم الألوهية نحو المطلق، وكله فى آن واحد، يتناثر دون تنظيم محدد على صفحات التوراة فيشكل خليطاً عجيباً دونما رابط ولا زمام، ولا مراعاة لمنطق التطور الزمني أو الاختلاف المكاني، ولا يبقى أمام الباحث سوى أن يلقى بنفسه وسط هذه الأحبولة ذات المائة وجـه والألـف لون.

ولا نزعم أنه بإمكاننا ترتيب الأمر كله دفعة واحدة، وإلا كان ذلك سذاجة مفرطة، وإنما غاية ما نزعمـه هو الإخلاص فى المحاولة مع الإشكاليات التى قد تعترضنا، على أن تتم هذه المحاولة على خطوات، مـع كـل خطوة نخطوها فى بحثنا، فى هذا التل المختل من الأحاجى والطقوس والاعتقادات والنظم والتاريخ، الباطل منها والصحيح.

وسيراً مع خطتنا التى اتبعناها فى البابين السابقين، سنحاول فهم طبيعة التأليه فى التوراة، وهنا يقول لنا (إيفار لسنر): إن سفر التكوين ينسب جزءاً من عملية الخلق إلى إله يدعى (إلوهيم Elohim) بينما ينسب جـزءاً آخر إلى إله يدعى (يهوه Jehovah)[١٢٣] ورغم تبسيط (لسنر) المسألة وتسطيحها، فإننا سنقف مع هذين الإلهين (إلوهيم) و(يهوه أو جاهوفاه) وقفة تفصيلية بعض الشيء:

والاسم (إلوهيم) هو جمع للاسم (إيل) أو (إل) الذى عرفناه عند الساميين فى الرافدين والهلال الخصيب، وهو الإله الذى استمر وجوده في التوراة متواتراً، طوال عصر الآباء البطاركة من (إبراهيم) النبى، والممتد عبر أبنائه وأحفاده، حتى ظهور النبى (موسى)، ومع (موسى) يبدأ (يهوه) فى الظهور، بعد أن التقى بموسى فى (مديان)وهو هارب من مصر بعد جريمة قتله المصرى ظلماً، حيث قال له «ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم» (خروج٣٦-٣).

وهنا قصد واضح من التوراة للتفرقة بين عهدين،عهد عُبد فيه الإله باسم (إيل) طوال عصر الآباء الأول، ثم عصر جديد يبدأ مع موسى يظهر فيه الإله باسم (يهوه) وبما أن المفترض فى سفر التكوين كقصة للخليقة، أن يكون أقدم بعصور وأزمنة بعيدة عن عهد موسى، ويعود إلى عصور موغلة فى القدم، فإن (يهوه) يظهر فيه ليقوم بجزء من عملية الخلق، فى عدة مواضع، مما حدا بالباحثين إلى الظن أن هذا السفر قد كتب بعد عهد موسى بزمان طويل،أما نحن فنرى فى ذلك تأليفاً بين قصتين للتكوين إحداهما قصة عتيقة قام بها بدور البطولة مجموعة من الأبطال من الآلهة القديمة عبرت عنهم التوراة باسم الجمع (إلوهيم)،كل منها (إيل)، وهى الآلهة التى رافقت العهد الإبراهيمى فى التوراة، وقصة أخرى أحدث، قام فيها بدور البطولة الإله (يهوه)، الإله الذى أرفقته التوراة بالعهد الموسوى وما بعده حتى اليوم.

[١٢٣] لسنر: سبق ذكره، ص١٤٥،١٤٤.

وقد سبق وعلمنا أن (إل) كان اسماً جلالياً منتشراً على نطاق واسع بين جميع الشعوب السامية، وعرفته القبائل السامية الضاربة على سواحل المتوسط الشرقية، ووصفته ملحمة البعل الأوغاريتية الفينيقية بأنه «إيل أبو السنين» و«خالق الخلائق»،«ثورايل»، «مقام إيل عند نبع النهرين»[١٢٤] وهى إشارات تدل على مستوى تطورى رفيع بلغه (إيل)، حيث تحول من إله فرد ضمن مجمع إلهى، إلى أب رفيع الشأن وإلهٍ للزمان (أبو السنين)، وتدل أيضا على مستوى رفيع من التجريد لدى هذه الشعوب،مما أدى به إلى التحول إلى رمز جلالى يطلق على أى معبود، ومن إله بذاته إلى اسم مجرد يعنى الإله أو الله، مما انتهى بالباحثين إلى اعتبار (إل) علماً إلهياً عرف فى كل العبادات السامية بلا استثناء[١٢٥]. خاصة بعد أن تأكد لدى الباحثين فى آثاريات جزيرة العرب أن (إل) كان معبوداً معروفاً قديما ومنتشراً فى كل بقاعها[١٢٦].

ورغم أن (موسكاتى) يرى أنه كان شخصية إلهية غامضة[١٢٧] فإن (ديتلف نيلسن)الباحث والآثارى فى آثاريات جزيرة العرب، يؤكد أن هذا الإله كان متواجداً باستمرار فى جميع النقوش التى عرضت له، وأنه كان ذا دلالة عامة (اسم جلالة) لكن (نيلسن) يشير فى الوقت ذاته، إلى أنه قد عرضت له نقوش، ظهر فيها (إل) كدال على إله خاص محدد مفرد[١٢٨] مما يدعونا إلى افتراض أنه ابتدأ كإله خاص، ذى دلالة طبيعة محددة، مثل (آن) السومرى،نظنها السماء، ثم تحول إلى رئيس لمجمع إلهى، ثم مع التطور انتهى إلى اسم جلالى ذى دلالة عامة[١٢٩].

---

[١٢٤] د. فريحة: ملاحم.. سبق ذكره، ص١١٨:١٢٥.
[١] د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ج٢، ص١٧.
[٢] ديتلف نيلسن: الديانة العربية القديمة، بحث ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، مع مؤلفين آخرين، ترجمة د. فؤاد حسنين على، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص١٢٧.
[٣] موسكاتى: سبق ذكره، ص ١٢٧.
[٤] نيلسن: الديانة، سبق ذكره، ص ١٨٤.

[١] من العجيب حقاً أن نلاحظ تواجد الإلهين (إيل) و(يهوه) في عبادات جنوب جزيرة العرب، ونلحظ ذلك في تركيب قوائم الملوك، التي عادة ما يتألف فيها اسم الملك من ملصقين أحدهما اسم الإله مضافاً إلي النعت الذي يفيد الانتساب إلي الإله أيا كان لون هذا الانتساب، وفي القوائم الملكية التي أوردها العلامة (هومل) عن الأركيولوجي (جلازر) وربما عن آخرين معه، أسماء لملوك معينين تحمل أسماء (إيلي يبيع، وقهي

ورغم أن البادى فى سفر التكوين التوراتى، أن (إل) إله مفرد ذو دلالة محددة، كما فى التأكيد أن «إيل إله إسرائيل» (تكوين٢٣-٢٠)، وأنه كان له موضع مقدس حمل الاسم السامى (BIT)، فأصبح هو «إله بيت إيل» (تكوين٣١-١٣)، فإن الباحث فى التوراة يجده فى مواضع أخرى كثيرة، اسماً ذا دلالة عامة، وأنه استخدم للدلالة على عدد من الآلهة كل منها (إل) أو إله، تعاصرت فى العهد الإبراهيمى، وكونت مجمعاً كان له إله رئيس أو كبير ميز بلقب (الرب الإله)، ويمكن أن نفهم ذلك من نصوص عديدة، منها مثلاً:

«وسمعا (آدم وحواء) صوت **الرب الإله** ماشيا فى الجنة»

«فنادى **الرب الإله** آدم وقال: أين أنت؟»

«فقال **الرب الإله** للمرأة: ما هذا الذى فعلت؟»

«فقال **الرب الإله** للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت»

(تكوين-٣)

أوما نجده فى النص الذى يحكى عن موقف الرب الإله من أبوى البشر، بعد أن أكلا من ثمرة المعرفة المحرمة بأمر الإله،وخشية الرب الإله أن يتطاول آدم وحواء أكثر،ويتناولا من ثمرة الخلود ويعيشا إلى الأبد كالآلهة، يقول النص: على لسان الرب:

هو ذا الإنسان قد صار **كواحد منا** عارفاً الخير

والشر، ولعله يمد يده الآن ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويحيا إلى الأبد.

إيل، إيل معدي) وفي قوائم ملوك قتبان وسبأ وهمدان نجد أسماء جديدة، يلصق فيها اسم الإله الجديد (يهو)، مثل: (شومو هو عليا، يوها أمين يوها نعيم، يهو أمين، يهو رجيب، يهو ضبيع). ارجع إلي قوائم الملوك كما أوردها (فرتز هومل) في (التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، ضمن كتاب تاريخ العرب القديم بالاشتراك مع نيلسن وآخرين) ترجمة د. فؤاد حسنين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.صفحات ٦٥: ٦٨،٧٧،٧٩.

والتعبير (كواحد منا) يشير بوضوح إلى مجمع من الآلهة الخالدة، يقف فيه الرب الإله متحدثاً،ومثل هذه الإشارات كثير التكرار فى التوراة، ومنها مثلاً عندما خشى الإله البشر،الذين قاموا يبنون برجاً صاعداً إلى السماء،وحتى لا يقلقون راحته السماوية، فقد بلبل ألسنتهم وفرقها كى لا يفهم بعضهم بعضا، ويتفرقوا عن البناء، فقام يقول:

هلم ننزل ونبلبل ألسنتهم

(تكوين١١-٥:٨)

وغالباً ما حددت التوراة الإله فى مجمع من ثلاثة شخوص، كما فى قصة ذهاب الرب إلى النبى إبراهيم، لزيارته وتبشيره بغلامه إسحق، وإبلاغه بقرار تدمير أهل لوط ابن أخيه فى (سدوم) و(عمورة)، الذين تفشى بينهم داء الشذوذ الجنسى. تقول التوراة:

وظهر له الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار. فرفع عينيه ونظر، وإذا **ثلاثة رجال** واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة، وسجد إلى الأرض، وقال: **يا سيد** إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك، فلا تتجاوز عبدك (تكوين١٨-١:٣)

والنص واضح تماماً، فالرب هنا يظهر فى صورة ثلاثة رجال، استقبلهم إبراهيم، ثم خاطبهم بصيغة المفرد: ياسيد، عينيك، عبدك، ونتابع النص:

ثم قام **الرجال** من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشياً **معهم** ليشيعهم، فقال الرب: هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله؟.. وانصرف **الرجال** من هناك، **وذهبوا** نحو سدوم، وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب (تكوين١٨-١٦:٢٢) مرة أخرى، الرب هنا مجموعة رجال فى واحد، لكن المربك فى هذا النص القول أن

هؤلاء الرجال الآلهة ذهبوا نحو سدوم ليدمروها، بينما بقى الرب مع إبراهيم، ولا تفسير لهذا الأمـــر ســـوى أن الذى بقى هو كبيرهم الرب الإله، ويؤكد لنا هذا الفهم، أن الذين ذهبوا لتنفيذ المهمة اثنان فقط، فالنص يتابع قائلا:

فلما **رآهما** لوط، قام **لاستقبالهما** وسجد بوجهه إلى الأرض، وقال: **يا سيدىّ** ميلا إلى بيـــت **عبـــدكما**،.. واغسلا أرجلكما.. (تكوين١٩-١:٢)

ومع ذلك فإن مزيداً من الإمعان فى التوراة، يرفع عدد آلهة المجمع، حيث نجد عدداً لا بـــأس بـــه مـــن الآلهة، فهناك: (إل صبأوت) إله الجنود، و(إله عليون) الإله العلى، و(إل شداى) الإله الشـــديد أو القـــدير، و(إل شلم) إله السلام، و(إل جبور)، و(إل رحبوت) و(إل يراه) ويمكن لخبرة الباحـــث فـــى تـــاريخ الـــديانات وفـــى الميثولوجي، أن يشتمّ فى هذه الأسماء، أسماء لآلهة مواضع ومناطق وظواهر طبيعية فترجمـــة (إل صـــبأوت) يمكن أيضاً أن تكون (إله الظباء) أو الإله الظبى أو التيس، وهو إله معروف فى تاريخ الديانات كرمز للخصب، و(إل عليون) يمكن أن يكون إله مكان مرتفع كقمة جبل أو بركان أو ما شابه ذلك و(إل شداى) يمكن أن يتـــرجم إضافة إلى كونه الشديد، إلى إله الشذى أو الرائحة أو الريح (الدال تختلط بالذال فى الساميات)، و(إل يراه) رمز واضح لإله الماء والرى والخصب، وينطق أيضا (يراخ)، والمصريون يقولون:(المطر يرخ) ويتضح للمدقق فى التوراة أن إل يراه كان إلها لبئر أو لعين من الماء فهو يلتقى بهاجر «علـــى عـــين المـــاء التـــى فـــى طريـــق شور»(تكوين١٦-٧) ويأمرها بالرجوع إلى سيدتها فدعت اسم الرب الذى تكلم معها: «أنت إيل رئى»، والمعنى أن هاجر تعلم أن هناك أكثر من إله، فميزت الإله الذى قابلته «الذى تكلم معها» وعرفت فيه إله الرى، بأنه «أنت إيل رئى»، وقد اكتشفت أنه إله الرى بالذات، والسبب «لأنها قالت: أهاهنا رأيت بعد روية» (تكوين١٦-١٣) أى ارتويت بعد عطش كاد يكون موتا (روية)، ثم إنها صادفت ذات الإله بعد ذلك عندما أخذها إبراهيم النبى بـــأمر زوجته سارة إلى البرية، حيث تركها هناك مع طفلها إسماعيل، حيث تظهر علامات إله الخصب مرة أخرى حين

«طرحت الولد تحت إحدى الأشجار» (تكوين٢١-١٥)، وأخذت تبحث عن الماء، «وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء» (تكوين٢١-١٩)،لذلك«دعت البئر بئر لحى رئى»(تكوين ١٦-١٣) ولعل النص فى الأصل«دعت البئر لهى رئى» أى إله الرى والماء.

ويظهر الإله (لهى رئى) فى أكثر من موضع فى العهد الإبراهيمى، لكن مع تداخل يهوه، الذى لم يظهر إلا فى العهد الموسوى،بيد الكاتب المتأخر الذى خلط بين العهدين،وذلك فى قصة تضحية إبراهيم بابنه لربه،وطقس التضحية يرتبط عادة بآلهة الخصب والرى،طلباً للغيث والرى،كما يرتبط بطقس الجنس الجماعى،والموضع الذى ذهب إبراهيم ليضحى فيه بولده يأتى فى النص القائل«فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع «يهوه يراه» (تكوين٢٢-١٤)،وهنا يرد (يهوه) بمعنى الإله مضافاً إلى(يراه) فهو إله الرى، وفى أكثر من موضع نجد اسحاق بن إبراهيم يسمى بئر هذه المنطقة «بئر لحى رئى»، أو ما افترضنا «بئر لهى رئى» أى إله الرى وليس إله الرؤية بمعنى البصيرة (التكوين٢٤-٦٢-٢٥-١١).

وهناك أمر يرتبط بهذا الإله هو إشارة المؤرخين العرب والمسلمين إلى هبوط النبى إبراهيم مع هاجر وولدها إسماعيل جزيرة العرب، لكن التوراة لم تشر إلى هذا الأمر بوضوح،وإن كنا قد استطعنا أن نعثر على متفرقات بالتوراة، يمكن أن تربط بين إبراهيم وجزيرة العرب، وأثبتناه بالأدلة فى بحثنا (النبى إبراهيم والتاريخ المجهول ــ سينا للنشر)، ويرتبط أيضا بهاجر وبالإله الذى التقت به عند البئر (إله رئى)، وبطقس ذبح الابن الذى كاد أن يقوم به النبى إبراهيم، (وهو أحد طقوس عبادة الخصب، حيث كانت التضحية بالابن البكر شرعة واجبة فى عبادات الخصب بطول المنطقة وعرضها فكان العباد يذبحون البكر ويحرقونه فى حجر الإله).

والتوراة تورد الأمر الإلهى لإبراهيم بقولها: «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق، واذهــب إلــى أرض المريا،وأصعده هناك محرقة» (تكوين٢٢-٢) لذلك «دعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه،حتى إنه يقال اليوم فى جبل الرب يرى» (تكوين٢٢-١٤).

والنص يعنى أن الرب أمر إبراهيم بذبح ابنه إسحق، وهو ما لا يتفق مع شرعة التضحية بالبكر، والبكر هو إسماعيل، والعرب والمسلمون يؤكدون أن الذبيح كان إسماعيل، وهو ما يتسق مع تلك الشرعة القديمـــة، وإذا كان إسماعيل فى التوراة، وفى كتب التراث الإسلامى هو الجد البعيد لعرب الجزيرة،فإن ذلك كله يذهب بنا إلـــى جزيرة العرب، فى رحلة إبراهيم مع هاجر وإسماعيل حيث تركهما هناك، لكن بعد أن كاد يضحى بولـــده فـــى (أرض المريا) لذلك سمى الموضع (يهوه يراه) وأنه يسمى حتى اليوم، أو بتعبير التوراة: يقال اليوم (جبل الرب يرى)، وهو ماتعنيه تماماً اللفظة العربية (المروة)، التى تتركب من ملصقين هما (إل=إله) و(مروة) أو (مروى) وتشير إلى الرى والخصب.

ولم تزل (المروة) موضعا مقدسا فى بلاد الحجاز، باعتقاد أن قدسيته موروثة منذ أيام النبـــى إبـــراهيم، وشعيرة الهرولة بين الصفا والمروة أحد شعائر الحج الأساسية، ويتبعه ضمن الطقوس شعيرة الذبح.

وتقول كتب التراث الإسلامى: إن الصفا والمروة كانا مقدسين قبل الإسلام بزمان وظـــلا مقدســـين فـــى العصر الجاهلى، وكان الجاهليون يهرولون بينهما لأنه على الصفا كان الصنم (إساف) أو (آصاف) أى يوســـف، وأن على المروة كان الصنم (نائلة)، وإن يوسف فى الأسطورة قد جامع نائلة داخل الكعبة، لذا نشأ طقس الهرولة بينهما فى الجاهلية، مداً وإيصالاً لحبل الوصال بينهما، وهذا الجماع كان بدوره أحد طقوس عبادة الخصب فـــى الديانات القديمة. (ولنلاحظ أن نائلة فى العامية نايلة، وفى العربية يعبرون عن وصال المرأة بكلمة نالها، وفـــى العامية المصرية: نَيّلها)

وتأسيساً على كل هذه المعانى سنقوم بالربط بين (إيل يراه) أو (إل يرخ) وبين القمر، باعتبار القمر كان يرتبط دوماً بالعبادة الخصبية التى كانت تقوم فى البوادى، والاسم (يرخ) كان أحد أسماء القمر فى العبادات السامية وله أسماء عدة مشتقة من (يراه)، فهو أيضاً (رخ)، (يرخ)، و(الورخ) و(يرح)، وكان أشهر مقار عبادته فيما يفيدنا به أنيس فريحة، المدينة التى حملت اسم (أريحا)[١٣٠] فى فلسطين.

وإننا إذ نربط بين القمر وبين عبادة الخصب، فإننا نقيم ذلك على عدة شواهد، أهمها الاعتقاد القديم أن القمر متولد أصلاً من الهواء، والهواء هو الذى يسبب الريح (يريح)، كما أنه فى هيئة الهلال كان فى شكل قرنين، والقرنان لوازم الحيوانات التى قدست باعتبارها رموز آلهة الخصب وهى الشياه عموما، (الثور، التيس، الخروف)،لذلك أطلق على القمر لدى الشعوب السامية اسم آخر هو (سين) اشتقاقاً من أسماء الشياه، وأسماء الشياه، فيما يفيدنا به (موسكاتى) كانت تنطق (سى) بإمالة السين إمالة طويلة، وهى التى تطورت بعد ذلك من (سى) إلى (شى) إلى (شاء) إلى (شاه)[١٣١].

إذن (إل يرى) هو إله الخصب إله القمر،وتأسيساً على فرضنا هذا وقياساً على ثوابت العبادات الخصبية فى المنطقة، يمكننا افتراض أنه كان فى الثالوث الإيلى، ابن (إل شداى) وشداى منها الشذى، أى الرائحة والريح والهواء، والقمر متولد عن الهواء فى اعتقادات القدماء كما أسلفنا فيكون (إل شداى) هو إله الهواء أبو إله الخصب القمرى (إل يرى).

---

[١٣٠] فريحة: دراسات .. سبق ذكره، ص٩١.
[١٣١] موسكاتى: سبق ذكره، ص٣١٩.

وهكذا لا يكون اليهود قد خرجوا فى عهدهم الأول عن النمط السائد فى العبـــادات الطبيعيـــة القديمـــة، المرتبطة بمواطن الزرع، وبظواهر الطبيعة الكبرى، والذين عبدوا الآلهة نفسها بالمواصفات والوظائف نفســـها تقريبا، بينما ظل (إل) كعلم مستقل ومجرد عند الجميع، دلالة جلالية تعود أصلا إلى السماء كجليل حمل لدى

السومريين الاسم (آن) مجرداً،ولدى الساميين الاسم (إل) مجرداً،ليظل دائماً فوق جميع الآلهـــة، وأبوهـــا جميعاً.

هذا عن (إلوهيم) أو مجموعة الآلهة الإيلية فى العهد الإبراهيمى وما قبله، فماذا عن (يهوه) المنسوب فى التوراة إلى النبى (موسى)؟

واضح أن إله السماء توارى بمرور الزمان وأصبح رمزاً غير واضح، بينما قفز الإله الابن ليحتل مكان الصدارة فى ديانات المنطقة، فأدونيس الفينيقى يبرز ويصبح فوق جميع الآلهة، وبعل الكنعانى يزيح الأب إيـــل تماماً ويصبح هو محور العبادات،ومن قبل تقدم إنليل السومرى على أبيه آن،بل وظهر المسيح الابن فى الديانـــة المسيحية بنص الأناجيل «كما الوحيد من الأب» ليصبح هو المعبود الرئيسى الأول، بينما توارى الأب تمامـــاً،ثم فى المذاهب الشيعية فى الإسلام، المنعوتة بالمتطرفة، تم إحلال الحسين فى المقام الأول بعد أن أزاح من الوجدان أباه (على) أو الإله العلى، وبنفس الطريقة أزاح الإله الابن (يراه) الأب وحل محله ليصبح هو إله الهـــواء وإلـــه الرى وإله القمر والإله الثور معاً، ولكن باسم (يهوه).

وإن استيلاء الابن على سلطات أبيه فى المجامع الإلهية، هو بالاستفادة من النظرية الفرويدية، ترديد لما حدث فى المجتمع الإنسانى على الأرض، حيث كان يحل الابن القوى دائماً محل أبيه الذى ظل مطلق الســـلطات

طوال فترة تمتعه بالقوة الجسدية، حتى إذا ما كهل وظهرت عليه بوادر الضعف،قفز أقوى الأبناء إلى المقدمة واستولى على القيادة.

وقد جاءنا من نصوص آثاريات (أوغاريت) الكنعانية الفينيقية نصوص تشير إلى أن الإله (إيل) أب طاعن فى السن عاجز عن إدارة شئون مملكته، تواق إلى أن يحمل ابنه أعباء وظيفته الإلهية عنه، وأعلن فى عدة نصوص تعيين ابنه خليفة له[١٣٢]؟

ولما كنا برأينا متفردين فى القول بتفوق (إل يراه) بالتحديد،وأنه هو الذى أصبح يحمل اسم (يهوه)بعد مجموعة الآلهة الإيلية (إلّوهيم)، فنحن نحتاج مزيداً من الأدلة حتى يتسم رأينا بالوجاهة المطلوبة.

لقد عرضنا فرضنا:أن (إل يراه) هو إله القمر المتولد عن (إله الشذى) أو الهواء أو الريح (إل شداى)، وأنه مرتبط بالرى والخصب، وأن أهم رموزه هى ذات رموز آلهة الرى فى مختلف العبادات الخصيبة، وهى الشياه (الثور، التيس، الخروف)،وأنه ربما صاحبته طقوس الخصب المعروفة فى عبادات الخصب كالتضحية بالأطفال على مذبحه، وممارسة نوع من طقوس الجنس لحض الطبيعة على الإخصاب والعطاء نباتاً وحيواناً.

وبالبحث عن دعم، نجد التوراة تحكى لنا: أنه من بين أسباط يعقوب (إسرائيل) من دخل مصر مع يوسف، حين كان مُوَزِّراً على خزانة مصر، وهناك تكاثروا وتناسلوا، ومن سبط ليفى أو لاوى كان النبى موسى، وإن موسى هرب من مصر إثر جريمة قتل فيها مصرياً، انتصاراً ليهودى من بنى جلدته، بعد أن تحولوا من سادة إلى عبيد، وأن هروبه كان إلى قبائل (مديان)، وهناك تعرف إلى كاهن مدين المدعو (يثران) وتزوج ابنته، وعاش معه زماناً يرعى الغنم فى تلك البوادى، وهناك:

---

[١٣٢] د. فريحة: دراسات .. سبق ذكره، ص ١٩٧ :٢٠٩.

جاء إلى جبل الله حوريب،وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة، فنظـــر وإذا العليقـــة تتوقـــد بالنار والعليقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقـــة؟ فلمـــا رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة، وقال: موسى، موسى، فقال: هاأنذا، فقال: لا تقترب إلـــى ههنا، اخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة.. هكذا تقول لبنى إسرائيل: أهيه أرسلنى إليكم، وقال الله أيضا لموسى: هكذا تقول لبنى إسرائيل يهوه.. أرسلنى إليكم، هذا اسـمى إلـــى الأبـــد. (خروج٣-١:١٥)

إذن، ميلاد (يهوه) فى أفق الديانة اليهودية، بدأ من تمثله فى نار تلتهب فى عليقة، حيث التقـــى بموســـى وأعلنه بقرار ربوبيته لليهود، ودعماً لفرضنا المطروح، ما نجده عند الآثارى (ديتلف نيلسن)، الذى قطـــع بـــأن (يهوه) كان إلهاً للقمر، تأسيساً على ما لاحظه من شواهد أهمها:

- أن التوراة عندما كانت تتحدث عن تجليات(يهوه) تفهمنا باستمرار أن هذا التجلى لم يكن يحـــدث إلا ليلاً.
- أن يوم السبت المقدس، والأعياد الأسبوعية الأخرى فى الطقوس اليهودية ترتبط بأيـــام المحـــاق الثلاثة، وترتبط كل شهرين بمواقع القمر.
- أن تعبيرات التوراة عن ظهور الإله (يهوه) هى اصطلاحات فلكية قمرية معروفة.
- أن ظهور (يهوه) فى سيناء لليهود، ارتبط بوقت ظهور القمر فى اليوم الثالث من الشهر القمرى.
- أن أهم مواقيت تقديس (يهوه)، تكون فى اليوم الأول من الشهر القمرى ومنتصف الشهر عنـــدما يكون القمر بدراً.

- أن مواعيد الأضاحى المقربة إلى (يهوه)حسب الأوامر المدونة بالتوراة كانت ترتبط بمواطن القمر، ويتزايد عددها مع نضوج القمر، حتى استوائه بدراً فى الرابع عشر من الشهر، فيذبحون أربعة عشر أضحية[١٣٣].

ونضيف إلى نيلسن ملاحظاتنا:

إنه وإذا كانت ديانات الخصب قد اعتبرت الشياه وعلى رأسها الثور، رمزاً لإله القمر، للتشابه بين الهلال والقرنين، فهو ما لم تخرج عنه التوراة، ومن أمثلة ذلك:

- أن أتباع موسى إبان رحلة الخروج، انتهزوا فرصة غيابه فوق الجبل لكى يحضر فصنعوا ثوراً من ذهب، ووقفوا يرقصون حوله عراة، وهو ذات الطقس التعبدى فى مختلف ديانات الخصب (خروج٣٥).

- تزعم التوراة أن موسى أمر بصنع تابوت بمواصفات محددة، ليتخذه (يهوه) مرقداً له، وإن هذا التابوت هو الذى وضعه الملك (سليمان) بعد ذلك فى هيكل عظيم، صنع للتابوت خصيصاً فى أورشليم، وأنه كان لهذا الهيكل مذبح، وعلى المذبح تمثال لرأس ثور كبير، له قرنان عظيمان[١٣٤].

ويذكر سفر الملوك الأول: أن الملك سليمان قتل أخاه أدونيا، وذبح قائد جيشه يوآب، وهو ممسك بقرون المذبح يستجير بيهوه[١٣٥] أما جميع زخارف المعبد فكانت ثيراناً مقدسة[١٣٦]، ويؤكد (ديورانت): «أن

(١٣٣) نيلسن: الديانة.. سبق ذكره، ص٢٢٣.
(١٣٤) د. شلبى : سبق ذكره، ص ١٨٤.
(١٣٥) نفسه: ص ١٦٩.
(٢) يعقوب السيد بكر: تعليقاته وهوامشه علي ترجمه لكتاب موسكاتي السابق ذكره، ص٣٤٩.
(٣) ديورانت : سبق ذكره، ص٢٣٨.

بنى إسرائيل لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والتيس»[١٣٧].

* أن الملك اليهودى (يربعام) بنص التوراة «عمل عجلى ذهب وقال لهم: عليكم أن تصعدوا إلـــى أورشليم، هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر، ووضع واحداً فى بيت إيـــل، وجعـــل الآخر فى دان» (ملوك أول١٢-٢٩،٢٨).

* أو ما جاء فى النص التوراتى عن هارون أخى موسى «فأخذ ذلك (الذهب) من أيديهم، وصورّه بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل» (خروج٣٢-٤).

* ولنذكر قارئنا بأمور عدة لم يقف عندها الباحثون، وأهمها هو: لماذا تحول الجبل المقدس، الـــذى التقى فيه موسى بربه لهيب العليقة، من جبل (حوريب) إلى جبل (الطور)؟ ولماذا كان اســـم كـــاهن بـــلاد مديان حيث التقى موسى بربه، وحيث تزوج بنت هذا الكاهن، لماذا كان يحمل اسم (يثران)؟ ويثـــران مـــع ظاهرة القلب فى الساميات تصبح (ثيران)!!

ونحن نعلم أن كهنة الآلهة، كانوا يتزيون عادة بزى الإله، وأكدت ذلك نقوش آلهة الخصب وكهنتها بطول المنطقة وعرضها، وصورت كهنة الثور يلبسون تاجاً ذا قرنين.

ومما يدعم وجهة نظرنا فى أن اللفظة (ثيران) أو كما وردت مقلوبة ـــ بالميتاتيز ـــ (يثران) هـــى لقب كهنوتى لكبير كهنة الإله الثور، هو أن أول ذكر لهذا الكاهن فى قصة لقاء بناته بالنبى موسى، عنـــدما كان موسى هارباً من مصر إلى مديان، تقول: «وكان لكاهن مديان سبع بنـــات، فـــأتين واســـتقين ومـــلأن الأجران ليسقين غنم أبيهن، فأتى الرعاة وطردوهن، فنهض موسى وأنجدهن، وسقى غنمهن،فلما أتين إلـــى

رعوئيل أبيهن.. قلن: رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة » (خروج٢-١٦:١٩).

وقد تكرر ذكر هذا الكاهن بالاسم (رعوئيل) عدة مرات كما فى النص «وقال موسى لحوباب بن رعوئيل المديانى حمى موسى: إننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم إياه» (عدد١٠-٢٩)، مما يفيد أن هذا المكان كان يحمل اسم رعوائيل ويقلب لقباً وظيفياً (الثور).

- وأنه ما علينا إلا أن ننطق اسم (يهوه) نطقاً دقيقاً (جاهوفاهJAHUVAH)حتى نجدنا نقلد خوار الثور بكل دقة؟! خاصة مع تدقيق (لودز LODS) فى النطق الصحيح لاسم هذا الإله، ووجوب نطقه بفتح ثم ضم فسجول طويلة[١٣٨] (والغريب مع ذلك، أن لودز لم يلحظ العلاقة بين النطق بهذاالشكل وبين خوار الثور).

ثم، وحتى ندعم فرضنا أكثر، سنضطر إلى تسجيل أمر هام لاحظناه، وهو التلبس الواضح للإله (يهوه) بالإله الكنعانى (بعل مولوخ) منذ مراحله المبكرة (والبعل مولوخ) ينطق أيضا ويكتب (بعل مولوك والبعل الملك).ويعنى السيد الملك، أو الرب الملك، وكان ذا غرام خاص بدماء الصغار وكانت له احتفالات يأخذ الناس زينتهم فيها، كأنهم فى يوم عيد، وكانت دقات الطبول وأصوات المزامير تطغى على صراخ أطفالهم،وهم يحترقون فى حجر الإله، وقد حدث فى قرطاجنة أثناء حصارها سنة ٣٠٧ق.م، أن أحرق على مذبح هذا الإله الدموى مائتا غلام من أرقى أسرها، كما كشفت حفائر (كفر الجرة) عن صندوق يضم عظام أطفال، تحت أساس عمود كضحية تأسيس، لبعل مولك، أو الملك.

---

[١] Lods (A): Israel from its beginnings to the middle of the Eighth century, London, ١٩١٣, PP ٣٢١-٣٢٢.

ومن القصص المشهورة قصة (ميشا) ملك (موآب) الذى ضحى بابنه البكر ليفك الحصار عــن مدينتــه، ولما أجابه البعل، ذبح سبعة آلاف يهودى شكراً وعرفاناً.

وملاحظتنا عن تلبس (يهوه) بالإله (بعل مولك)، تبدأ من شغف (يهوه) بدوره بدماء البشــر،فهذا الملــك (يفتاح) ينذر للرب نذراً قائلاً: «إن دفعت بنى عمُّون ليدى، فالخارج الذى يخرج، للقائى عند رجوعى بالســلامة من عند عمون، يكون للرب، وأصعده محرقة.. ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته، وإذا بابنته خارجة للقائــه.. وهى وحيدة ولم يكن له ابن ولا ابنه غيرها.. ففعل بها نذره الذى نذر» (قضاة١١-٣٠:٣٩) ثم انظر مثلا آخر: «وسلمهم إلى يد الجعبونيين، فصلبوهم على الجبل أمام الرب» (صموئيل الثانى٢١-٩)،أو «فحمى غضب الرب على إسرائيل، فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب،وعلقهم للرب مقابل الشمس، فيرتــد حمــو غضــب الرب» (عدد٢٥-٣،٤)، أما النبى (إرميا) فيعلنها صريحة ويقرر أن اليهود كانوا يقــدمون أطفــالهم مــذبوحين محروقين على مذبح البعل الملك (إرميا-٩).

ومع مزيد من المطالعة فى التوراة يتأكد فرضنا،حتى نكاد نزعم أن (يهوه) لم يكن شيئا آخر غير (البعل الملك)،ولنعد إلى لقاء موسى بيهوه النارى، والنص يقول: «وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط العليقــة» ومع التعبير (ملاك الرب) يستمر النص فيقــول: «نــاداه الــرب مــن وســط العليقــة.. هكــذا تقــول لبنــى إسرائيل:(يهوه)أرسلنى ..إليكم» فما المعنى إذن؟ هل كانت نار العليقة ملاك الرب، أم الــرب (يهــوه) ذاتــه؟ الواضح فى النص أنها الرب بذاته، إذن ما هو تفسير (ملاك الرب)؟ لقد حاولت فى بحث سابق (القمــر الأب أو الضلع الأكبر فى الثالوث) تفسير هذا التضارب المتواتر بكثرة فى التوراة ما بين ملاك الرب، و(الــرب)، بــأن كاتب هذه الأجزاء من التوراة من الكتاب المتأخرين (حوالى ٤٠٠ق.م فى الأسر البــابلى وبعــده)، وأن فكــرة

الألوهية كانت قد سارت حثيثاً فى تطورها نحو التوحيد، مما حدا بالكاتب إلى محاولة تفادى التعدد عند الحديث مثلاً عن الذين دمروا سدوم وعمورة (وهم ثلاثة) فكان يضطر إلى إثبات المعلومة الأصلية المعددة،ثم يتحايل بالقول أنهم ملائكة، لكنى ــ لوجه الحق ــ لم أعد مقتنعا تماماً بصدق هذا التفسير، لذلك لن أثبته الآن أو أنفيه، إنما أضيف إليه تصوراً جديداً أو فرضاً جديداً أكثر تماسكاً وقبولاً، أبدأه بافتراض وجود خطأ واضح ربما كان فى ترجمة النصوص الأصلية فلا شك أن (ملاك الرب) إنما هى أصلا (الرب الملك) أو (البعل مولك، مولوخ)، ويدعم ذلك أن تعبير (ملاك الرب) يرد تبادلياً فى مواضع كثيرة بالتوراة مع تعبير (الإله أو يهوه)، ومن هنا لا شك يراودنا إذا قلنا أن (يهوه) لم يكن شيئاً آخر غير (البعل مولك) أو (الملك)، منادى بالاسم اليهودى الجديد (يهوه).

ولنلحظ أن (شتادة) يرى معنى الاسم (يهوه) هوى بمعنى سقط[١٣٩] ولنلحظ أن هوى فى اللغة تعنى سقط وارتفع فى آن معاً، فهو الهواء، وهو ما ذهب إليه (فلهاوزن) حين اعتبر (يهوه) إله الريح[١٤٠]، وقد خرج المرحوم العقاد باعتقاده أن الاسم (يهوه) من مادة الحياة (يحو)[١٤١]، وهو ما يذكرنا بالتعبير التوراتى المتواتر عن (إل رئى) بأنه مرة (يهوه رئى)، ومرة (لحى رئى)، ولنلحظ أن الهواء سبب (الحياة)، والأقدمون اعتبروا (الروح) سر الحياة من (الريح) أو الهواء والنفس، وحملت لنا اللغة اشتقاقاتها من جذر واحد، وعليه فإن فرضنا أن (يهوه) كان إلهاً للهواء والريح مرموزاً له بالشياه، مع استفادتنا بمذهب (ديتلف نيلسن) أنه كان إلهاً للقمر، قد أصبح فرضنا مدعماً بشكل كافٍ، وقد ألمح الباحثون إلى ارتباط (يهوه) بالبراكين، وعدوه إلهاً بركانياً ولنا هنا إضافات تثرى هذا المعنى فإذا ربطنا بين ظهور القمر بجاذبيته التى تسبب ظاهرة المد، كما تسبب أيضاً فوران

Atertu mer. الهامش الأول. [1] Stade (B): Lehrch der hebraischen (J):Die Biblischen
[1] walihausen (J) : Die Bibli schen Atertumer
انظر أيضا هوامش يعقوب سيد بكر علي كتاب موسكاتي السابق ذكره ص٢٨٦.
[١٤١] عباس العقاد: الله ، كتاب الهلال سبتمبر ١٩٤٢، ص ١١٣.

البراكين النشطة، فإن ذلك يؤدى إلى ارتباط القمر بالبراكين فى أذهان الأقدمين، ولو طبقنا ذلك علـــى (يهـــوه) كقمر سنجده مرتبطاً بالبراكين ارتباطاً مثيراً، حيث نجد صفات (يهوه) فى التوراة صفات بركانية دون لبس، فهو قد ظهر ــ أولاً لموسى فى هيئة نار فى عليقة،كما كان يتمثل لموسى وأتباعه إبان رحلة الخروج «نهـــاراً فـــى عمود سحاب.. وليلاً فى عمود نار»(خروج١٣-٢١)، وهو المشهـــد الذى تتجلى به البراكـــين، فهى إبان النهار يطغى ضوء الشمس على إشعاع لهيبها المختفى فى الفوهة، فلا يرى منها غير دخانها، أما ليلاً فيتضـــح مشـــهد النيران واللهيب.

كما خلعت التوراة على (يهوه) صفات، ليست سوى صفات مسئول كبير عن البراكين وهولها فى تصور العقل القديم فهى تصفه بأنه «إله يسخط كل يوم» (مزامير٧-١١)،وأنه «يمطر.. فخاخاً نـــاراً وكبريتـــا وريـــح السموم» (مزامير١١-٦)، وأنه ينادى عباده آمراً «اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعده ».(مزامير٢-١١) وأنـــه إذا غضب «صعد دخان من أنفه ونار من فمه» (مزامير١٨-٨)، وأنه إذا تجلى صاحبته «رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل.. وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتـــون، وارتجف كل الجبل جداً» (خروج١٩-١٦-١٨)، أما صفته الدائمة المتواترة فى نصوص التوراة فهـــى «الـــرب إلهك هو نار آكلة» (تثنية٤-٢٤) أما أوضح تعبير توراتى عن ارتباط ظهور القمر بجاذبيته، بظهور الإله (يهوه) بثورة البراكان، فهو ذلك النص الذى لا يحتاج تعليقا: «.. جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير،وتلألأ من جبل فاران،وعن يمينه نار شريعة لهم» (تثنية٣٣-١) مع ملاحظة أن اسم الجبل الذى أشرق منه الإله (يهوه) أو القمر، يحمل اسم (سعير)، والسعير يدل على هوية هذا الجبل المستعر بالنار الذى تلألأ منه الإله وعن يمينه نار.

أما الأكيد فهو أن ابن (إيل) كان(البعل **الملك**)، وفى النصوص الأوغاريتية الكنعانية يقول الرب (إيـــل):

«اسم ابنى ياو»[١٤٢]، و(ياو) ليس شيئاً آخر غير (ياهو) أو (إهيه) أو (ياه) أو (يهوه)، أسماء رب اليهـود فـى العهد الموسوى، كما وردت فى التوراة!! (ولنلحظ أنه عندما جاء الإسلام أعطى ملاك أو خازن النار فى السعير الاسم **مالك**)؟!

وعليه نقرر أن اليهود عبدوا فعلا (الملك) باسم (يهوه) فى الغالـب وعبـدوه أحيانـاً أخـرى بالاسـم (الملك)صراحة كما رأينا فى سفر النبى أرميا. وأنهم تحاشياً لهذه الوصمة الكبرى التى تهدم أعمدة الفكر الـدينى اليهودى المتسم بالذاتية والاستقلالية والخصوصية التامة، حيث زعموا أن (يهوه) اختارهم من بين العالمين عُباداً له، بينما هو أحد آلهة شعوب المنطقة، وأنه كان معبود اليهود فعلاً وإلا ما حرمتـه ونهـت عنـه التشـريعات الموسوية، أقول: تحاشياً لذلك استخدم اليهود الاسم (يهوه) بديلاً عن (الملك)، ذلك الاسم الذى حمل من المعـانى الكثير أوردناها سلفاً، لكنه حمل أيضاً معنى نداء الغائب فى العبرية تحاشياً لنداء الرب صراحة باسـمه (بعـل مولوك) أو (الملك)، ولم تكن التسمية (يهوه) كنداء للغائب (هو)كما ذهب الباحثون التوراتيون احترامـاً للـذات الإلهية (كما فى رأى سميث مثلاً)[١٤٣] إنما تغطية لاسم المعبود الأصلى، الذى كثيراً ما ظهـر فـى الترجمـات بالاسم (**ملاك** الرب) بدلاً من الترجمة الحقيقية (الرب الملك) أو (البعل **مولوك**) أو مالك .

لكن ذلك لا يعنى أن اليهود، قد انتقلوا من عبادة مجموعة الآلهة الإيلية (إلّوهيم)، إلى عبادة إلـه واحـد باسم يهوه، فالأمر لم يكن كذلك، ولم يكن (يهوه) هو إله اليهود الوحيد بعد العهد الموسوى، إنما كان هناك عـدد آخر من العبادات لحق بعبادة(يهوه) وعددا من الآلهة عُبد فى الوقت ذاته إلى جوار (يهوه) حتى فى داخل هيكله، وقد سجلت التوراة ذلك دونما حرج،وتواجدت هذه الآلهة طوال العصر الممتد من موسى حتى ظهـور الأنبيـاء

---

(١٤٢) السواح: سبق ذكره، ص ١٠٨.

(٢) أحمد شلبي: سبق ذكره، ص ١٧٦ مأخوذ عن

Smith , God and Manin erly Israel, p٣٥.

الموحدين (أمثال أشعيا ودانيال، وظهروا متأخرين، قبل القرن السابق للميلاد بقليل).

فإلى جوار (البعل الملك) أو (يهوه) عبد اليهود عددا آخر من البعول مثل (بعل فغور)، الـذى ورد فـى النص التوراتى «وتعلق إسرائيل ببعل فغور، فحمى غضب الرب على إسرائيل» (عدد٢٥-١:٥) ومثل البعلـة، زوجة بعل مولك (البعلة الملكة، أو ملكة السماوات، بعليت مولوخ) المعروفة بالأنثى الإلهية (إنـاث). إذ قالـت التوراة بلسان اليهود «بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا، فنبخر **لملكة السماوات**، ونسكب لها سكائب، كما فعلنـا نحن وآباؤنا وملوكنا رؤساؤنا فى أرض يهوذا، وفى شوارع أورشليم، فشبعنا خبزا، وكنا بخير..» (أرميـا٤٤-١٧).

بل إن بعض كبار ملوكهم مثل سليمان، عبد مثل هذه الآلهة صراحة وهو مانراه فى الـنص التـوراتى «حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين، على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولمولك رجس بنى عمون» (ملوك أول١١-٧) وبالمناسبة: هل كموش غير جموش أو بالعربية جموس أو جاموس؟ لفتة نشير بها إلى إنـه بدوره كان إلهاً للخصب.

ثم إنهم عبدوا أيضا (تموز) إله الخصب الرافدى، ومارسوا طقوس الندب والبكاء عليه باعتبـاره إلهـاً شهيداً، كما ظلوا على عبادة الشمس فترة طويلة وهو ما يفهم من رواية النبـى حزقيـال، عنـدما ذهـب إلـى الهيكل:«وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز.. وإذا عند باب هيكل الرب وبين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً، ظهورهم نحو هيكل الرب، ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس» (حزقيال٨-١٤:١٦).

ولا تنى التوراة تؤكد أنهم عبدوا مجموعة البعول والبعلات الملقبات باسم (عشـتارت) مـن عشـتروت الرافدية، فتقول: «وعبدوا البعليم (جمع بعل) والعشتاروت (جمع عشتار) وآلهة آرام وآلهـة صـيدون، وآلهـة

موآب، وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين» (قضاة١٠-٦) أو باختصار، أنهم شاركوا فـــى عبـــادة كـــل آلهـــة المنطقة.

ومن المقدسات الشبيهة بالآلهة عند اليهود، وربما كانت أدنى قليلاً، كائنات أسمتها التـــوراة (الكـــروبيم) جمع (كروب)، وكان تصورهم لشكل (الكروب) محيراً، فهو يظهر مرة على أنه طير ربما كان نسراً، لكنه بعـــد ذلك يأخذ شكل الثور المجنح، بوجه إنسان، فالأسفار القديمة تصوره فى هيئة نسر صنع له تمثالان وضع أحدهما على مقدمة تابوت العهد أو الشهادة والآخر فى مؤخرته، فالنص يقول: «فلما دخل موسى إلى خيمة الاجتمـــاع، ليتكلم معه(الرب)، كان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الذى على تابوت الشهادة، مـــن بـــين الكـــروبيين» (عدد٧-٨٩). وينسب إلى موسى القول أنه رأى هذا النوع من الطيور قرب عرش الإله، وأنه لما أتـــم ســـليمان بناء الهيكل، جمع شيوخ اليهود «وحمل الكهنة التابوت..وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محـــراب البيت، فى قدس الأقداس، إلى تحت جناحى الكروبيين» (ملوك أول٨ : ١)

ويبدو لنا أن تقديس النسور فى مختلف العبادات القديمة، كان سببه رؤية العقل القديم لمسكن الآلهة فـــى السماء، مع قدرة هذه الطيور رغم ضخامتها على الطيران والصعود فى الأعالى، مما جعلها فى التصور قريبـــة من الآلهة، لذلك أعطى العقل القديم كل المقدسات القريبة من الآلهة الأجنحة والقدرة على الطيران حتى تـــتمكن من الصعود إلى مقر الآلهة أو الهبوط منها، وهو ما نلحظه فى صفات الملائكة، وقد قدســـت معظـــم الشـــعوب القديمة النسر وبخاصة العرب الجنوبية وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة (نسر) ضمن مجموعة آلهـــة عربيـــة قديمة فى قوله: (ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) (٢٣- نوح).

أما الصورة الثانية للكروب، كثور مجنح برأس إنسان، فتأتى فى الأسفار المتأخرة، حيـــث نجـــد النبـــى حزقيال يصفه كالآتى: «لها شبه إنسان، ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة ..أيدى إنســـان تحـــت

أجنحتها.. أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد.. ووجه ثور.. وجه نسر» (حزقيال ١-٢٥)، وقد نقشت تماثيل هذه الكائنات الإلهية على جدران المعبد اليهودى ومع التحول نحو التوحيد (عند إشعيا وأرميا) تحولت الكروبيم إلى الدابة التى يستخدمها الإله فى الركوب، فكان لابد لدابته أن تتميز عن حمير وخيول البشر، بما يليق بمكانته، فأضيف إليها وجه الإنسان،والأجنحة.« ركب على كروب وطار وهف على أجنحة الرياح» (مزامير١٨-١٠)

وغنى عن الذكر أن مثل هذه الكائنات بقى محفوراً فى الديانتين المسيحية والإسلامية، ففى المسيحية تصادفنا (الكروبيم) فى حفل أو (بارتى) إلهى تغنى قداساً إلهياً (رؤيا يوحنا اللاهوتى٤-٦:١١)،أما فى الإسلام فقد جاءتنا الدابة الإلهية (كروب) منطوقة (قروب)، ومع ظاهرة القلب المعروفة فى اللغات السامية تحولت (كروب)، أو (كراب) إلى (براك)، أو (براق) وهو دابة سماوية بوجه إنسان وجسم مجنح، حملت النبى محمداً ﷺ من مكة إلى القدس فى قصة الإسراء المعروفة، كما كان للبراق باسمه العبرى (كروب) شأن فى كتابات التراث الإسلامية،لكن بعد أن تحولت مع التطور إلى أملاك للإله الواحد، فهى ملائكة له، فأصبحوا سادة الملائكة[١٤٤] وباعتبارهم دواب ركوب وحمل، فقد جاءوا كحملة للعرش الإلهى فى الإسلام[١٤٥] كما كانوا مركباً ليهوه وتابوته من قبل، وقد صادق النبى محمد ﷺ على بيت من الشعر الجاهلى لأمية بن عبد الله يصف الكروب يقول فيه:

رجل وثور تحت يمنى رجله والنسر لليسرى وليث ملبد

وجاء تصديق النبى فى تعقيبه على هذا البيت بقوله:

---

(١٤٤) الزمخشرى: الفائق، طبعة محمد أبو الفضل وعلى الباجوى، ج ٢، القاهرة ١٩٤٧، ص ٤٠٨.
(١٤٥) القزويني: عجائب المخلوقات، جوتنجن، ١٨٤٩، ص ٥٦.

صدق أمية فى قوله[١٤٦] !؟

ولعل صورة الكروب تلك، لا فرض آخر لظهورها، وتحولها من نسر إلى ثور مجنح،سـوى القـول أن حزقيال قد تأثر بشدة بالثيران المجنحة المرسومة على جدران بابل، وتماثيلها المتناثرة فى أرض بابل، وكانـت عند البابليين حيوانات خرافية مهمتها حراسة المواقع الهامة فى البلاد، ولا شك أن حزقيال رآها هناك إبان أسـر اليهود فى بابل.

ونظن أن اليهود قد تمثلوا فى هذا الكروب البابلى إلههم (يهوه) فى فترة من زمانهم: فالوجـه الإنسـانى الوقور يمثل الجانب البشرى فيه، والثور يمثل إل رئى، بوصف الثور رمزا للخصب والرى، والأجنحة تمثل إل شداى أو الريح، والقرنان رمز للقمر.. الخ.

ثم إضافة للكروبيم كانت هناك كيانات أخرى مقدسة مثل السرافيم جمع سـاراف، ويفسـر (موسـكاتى) ساراف أنها كانت تعنى الحية أو الثعبان[١٤٧].وقد سبق وأقام لها موسى تماثيل مقدسة على راياته عند خروجـه من مصر «فصنع موسى حية نحاس ووضعها على الراية» (عدد٢١- ٩)، ولا ننسى عصى موسى التى كانـت تنقلب إلى حية، كما لا ننسى خروج موسى ورجاله من مصر القديمة حيث كانت الحية رمزاً مقدساً يوضع على تيجان الفراعنة،وأن السرافيم لم تعرف فى تاريخ الديانة اليهودية قبل الخروج من مصر، ويبدو أن عبادة الحيـة وما يلزمه طقسها من إيقاد نار مستمرة أمامها للتبخير وتقديم قرابين البخور، قد استمر قائماً فـى أفـق الديانـة اليهودية دون أن يغضب (يهوه) أو ينزعج وهو ما تؤكده التوراة فى قولها: «حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها"(ملوك ثانى١٨-٤)، هذا بينما كان(يهوه) يتفجر غضباً إذا عبـدوا

---

[١٤٦] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، بولاق، ١٢٨٥هـ ، ص ١٦٠.
[١٤٧] موسكاتى: سبق ذكره، ص ٣٠٥.

بعلاً آخر لأنها بعول غريبة، مثل بعل بنى موآب كموس أو جاموس أما هو فالبعل الوحيد لليهود، لـــذلك كـــان يطالبهم بالإخلاص القبلى له دون بقية البعول، وفعلاً نظر اليهود إلى بعلهم بحسبانه بعلاً إسرائيلياً فحسب، أحـــق بعبادة اليهود من البعول الأخرى، ولم ينكروا فى الوقت ذاته وجود بعول أخرى، كما لم ينكر (يهوه) ذلك، لكـــن إنكار الأتقياء منهم كان إنكاراً لسيادة رب غريب عليهم، ومن هنا دانوا ليهوه وحده بالولاء، فالتوراة لا تميز ربها باعتباره رب الجميع الأوحد، إنما رب إلى جوار أرباب الشعوب الأخرى، لكنه الوحيد من بينها الجـــدير بـــولاء اليهود، انظر مثلاً:

من مثلك بين الآلهة يارب (خروج١٥-١١)

الآن علمت أن **الرب أعظم من جميع الآلهة** (خروج١٨-١١)

من يشبه الرب بين أبناء الله؟ إله موهوب جداً فى مؤامرة القديسين، ومخوف عنـــد جميع الذين حوله، يا رب إله الجنود، **من مثلك قوى رب؟** (مزامير٨٩-٦:٨)

لكن التطور التالى الذى لحق بعبادة البعل الملك يهوه، ليتحول به من إله قبلى إلى عالمى، يطلب السيادة على القبائل والشعوب الأخرى، فقد جاء مترافقاً مع ظروف عالمية وتغيرات جدت بعد السبى فى الرافدين، وقام بهذه المهمة بكفاءة عالية عدد من الأنبياء، أشهرهم (دانيال وأشعيا)، اللذين كانا على علاقة سرية وخاصة بالدولة الفارسية الطالعة الطموحة، وبعلها (كورش)،حتى اتهم أشعيا بسبب هذه العلاقة بالجاسوسية لحساب الفرس، رغم وضوح أنه كان يعمل بإخلاص لفك أسر اليهود على يد قورش، ولو مع بعض التنازلات الدينية التى لا بأس بها إزاء الغرض الأكبر، وكانت هذه التنازلات هى سبب هجوم اليهود عليه واتهامه بالعمالة، وقد اســـتطاع أشـــعيا وصحبه أن يفتحوا أبواب بابل للفرس، وبعد سقوط هذه القوة الكبرى تمكن قورش من الزحف قدماً ليكوّن أكبـــر

إمبراطورية ظهرت فى الشرق حتى عهده، وباعتبار اليهود قطعة من هذا الملك الواسع، فقد تصرف الأنبياء وفق الوضع الجديد، واستغلوه سياسياً ودينياً بذكاء، فحولوا إلههم المحلى إلى إله عالمى، ولم يترددوا عن التجاسر بالقول إنه هو إله قورش ومن ثم إله الإمبراطورية، بل وسجلوا ذلك فى توراتهم، وادعوا أن قورش كان يعمل بنصح(يهوه) وإرشاده حتى بلغ بهم الأمر مبلغاً كبيراً فقالوا إن قورش هو مسيح(يهوه)المنتظر، ومخلص اليهود الذى طالما ترقبوا ظهوره ليعيدهم إلى أرضهم ليبنوا دولتهم من جديد، هذا رغم أن قورش كان رجلاً مؤمناً بديانته الزرادشتية، مخلصاً لها تماماً، لكنه لم يجد بأساً ولا حرجاً فى قليل من المجاملة لجواسيسه الخُلّص فتغاضى عما كان يعلنه اليهود عنه وعن الرب يهوه، مادام الأمر لم يتجاوز النطاق الدينى أو نطاقهم هم الدينى بتعبير أدق.وزاد قورش فى المجاملة فأطلق سراحهم من الأسر، وساعدهم فى إقامة هيكلهم مرة أخرى، ثم تزوج واحدة منهم (إستير) وجعلها ملكة على بابل.

وكان لتبادل هذه المجاملات والسماحات بين العاهل الفارسى العظيم وبين اليهود، دوره الفاعل فى تحول(يهوه)من إله قبلى محلى إلى إله عالمى..

وسبق ذلك عدة محاولات سريعة لتخليص (يهوه) من ارتباطه بمولك الثور ومن السرافيم (الحيات) والكروبيم (الثيران الطائرة)، فقام عدد من الأنبياء بهذه المهمة بجرأة شديدة ليعلنوا كفرهم بالإله الثور،والتنديد به والتطاول عليه، فهذا يجهر قائلا: «قد زَنِخَ عجلك يا سامرة» (هوشع٨–٥)وذاك الملك حزقيا بن أحاز يتبع الدعوة الجديدة، فتسجل التوراة عنه، أنه «هو أزال المرتفعات، وكسر التماثيل،وقطع السوارى، وسحق حية النحاس التى عملها موسى، لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها» (ملوك ثانى١٨–٤)

ولذلك «أمرالملك حلقيا الكاهن العظيم، وكهنة الفرقة الثانية، وحراس الباب أن يُخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة

للبعل (إقرار واضح بصدق فرضنا)، وللسارية ولكل أجناد السماء، وأحرقها خارج أورشليم، فى حقــول قدرون، وحمل رمادها إلى بيت إيل.. وذبح جميع كهنة المرتفعات.. وكــذلك الســحرة والعرافــون والتــرافيم والأصنام، وجميع الرجاسات» (ملوك ثانى٢٣-٤:٢٤).

ومن ثم جاز ليهوه بعد ذلك أن يزهو بذاته الوحيدة، فيقول على لسان أشعيا:

أنا الرب وليس آخر، لا إله سواى.. أنا الرب وليس آخر، مصور النــور وخــالق الظلمة، صانع السلام (أشعيا٤٥-٥:٧)

أنا الأول وأنا الآخر، ولا إله غيرى وكل شيء أنا أعلم به..أنا الرب صــانع كــل شيء، ناشر السموات وحدى، باسط الأرض، من معى؟ (أشعيا٤٤-٦:٢٤)

الجالس على كرة الأرض.. الذى ينشر السموات كسرادق،ويبسطها كخيمة للسكن، الذى يجعل العظماء لا شيئاً (أهل بابل)، ويصير قضاة الأرض كالباطل.. فبمن تشــبهوننى فأساويه؟ (أشعيا٤٠-٢٢:٢٥)

وهكذا تكفل أشعيا بإشاعة أن يهوه قورش وناصره،ومن ثم هو إله الإمبراطورية والعالم،ولم يعترض قورش المجامل على جواسيسه الذين كانوا ينقلون له أخبار بابل ومختلف الشعوب أولاً بأول بوفاء جلى.

أما دانيال النبى فقد تكفل بمهمة أخرى، فقام يرد تحية قورش بأحسن منها، فأدخل إلى اليهودية عقيــدة جديدة لم تكن فيها أبداً من قبل،أخذها عن ديانة كورش(الزرادشتية) ليكون هذا المزج الــدينى كفــيلاً بتحقيــق

الأهداف المرجوة فقد ظل اليهود طوال عصورهم يعتقدون أن الموتى جميعاً يرحلون إلى العالم التحت أرضى،صالحهم وطالحهم، ذلك العالم الذى أسمته التوراة (الهاوية) و(شيول) وأكدت التوراة هذا المعنى،فهى تقول: «من جهة أمور بنى البشر،إن الله يمتحنهم ليريهم أنه كما البهيمة هكذا هم.. موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة للكل»

(جامعة٣-١٨:١٩)

وكان أعظم عقاب ربانى يلحق بإنسان، هو أن يموت، حتى أن الله ذاته كثيرا ما كان يلجأ إلى هذا السلاح السريع المفعول لإنزال عقابه على العصاة، فيميتهم ليذهبوا إلى عالم تحت الأرض (الهاوية)، أما الإنسان المخلص ليهوه، فكان يهوه يزيد فى سنى عمره وفى حياته الدنيوية الأرضية.

فالتوراة تحكى: «وكان عير بكر يهوذا شريراً فى عينى الرب، فأماته الرب» (تكوين٣٨-٧). وهذا«أونان.. أفسد على الأرض.. فقبح فى عينى الرب ما فعله، فأماته أيضا» .

(تكوين٣٨-١٠،٩).وذاك الملك التقى الورع (حزقيا) يخبر النبى أشعيا بقرب موعد موته، ويرجوه أن يتوسط له لدى الرب يهوه، وأن يذكر(يهوه) بأفضاله عليه، فينقل أشعيا الرسالة ليهوه،ويتلقى الرد«اذهب وقل لحزقيا هكذا يقول الرب إله داود أبيك قد سمعت صلاتك،قد رأيت دموعك وهاأنذا أضيف إلى أيامك خمس عشرة سنة» (أشعيا٣٨-٦).

لذلك فإن «مخافة الرب تزيد الأيام، أما سنو الأشرار فتقصر» (أمثال١٠-٢٧)، لأن شيول تساوى بين الجميع، «هذا يموت فى معظم وفرة وقد عمته الدعة والطمأنينة وذاك يموت فى مرارة ونفسه لم تذق طيبا،وكلاهما يضطجعان فى التراب، فيكسوهما الدود، فمن الذى يبين طريقه، ومن يكافئه على ما صنع؟»

(أيوب٢١-٣١).

لذلك كانت التوراة تؤكد أن الموتى «يضطجعون معاً لا يقومون، قد خمدوا كفتيلة انطفأوا» (أشـــعيا٤٣-١٧) «يناموا نوماً أبدياً ولا يستيقظوا» (أرميا٥١-٣٩). بل يبدو لنا في التوراة أن العالم التحت أرضـــي خـــارج عن سلطان (يهوه) وسيطرته، فهذا يرجو ربه ألا يميته قائلاً: «عد يارب، نج نفسي، خلصني من أجل رحمتـــك، لأنه ليس في الموت ذكرك، في الهاوية من يحمدك؟.. هل يحدث في القبر برحمتك؟ أو بحقك في الهلاك؟ هـــل تعرف في الظلمة عجائبك؟ وبرك في أرض النسيان؟» (مزامير:٦).

حتى الأنبياء ذاتهم، عندما كانوا يتسببون في إشعال غضب (يهوه) لا يجد لهم دواء سوى القتل، وهو ما نراه في موت النبي موسى وأخيه هارون «وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلا: اصعد إلى جبل عبـــاريم، هذا.. ومت في الجبل الذي تصعد إليه.. كما مات هارون أخوك.. لأنكما خنتماني» (تثنية٣٢-٤٨:٥١)

بل إن كبار الأنبياء كانوا يعلمون مصيرهم بعد الموت،وأنه هاوية تحت الأرض، فها هو يعقوب ينـــوح حزيناً على موت ولده يوسف، بعد أن خدعه أبناؤه وقالوا له: لقد أكله الذئب، فيقول: «إني أنزل إلى ابني نائحـــا في الهاوية» (تكوين٣٧-٣٥).

ولكن هل كان دانيال يعرف أن (كورش) سيرضى بهذا المصير ولديه في الديانة الزرادشتية نعيم مقـــيم بعد الموت في مكان سماوي يدعى (باراديس) أو (الفردوس)؟ هنا كانت مهمة دانيال الذكي، فقام يحـــول شـــيول إلى عالم خالد، من أجل عيون قورش، ذلك الذي أصبح مسيحا للرب ويستحق مصيرا أفضل،وبالطبع قبل قورش الهدية ممتنا شاكرا،فظهر في التوراة،سيرا على منطق الديانة الزرادشتية ولأول مرة،حديث حول قيامة الأموات:

وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلـــى الحـــياة الأبـــدية، وهؤلاء إلى العـــار إلـــى

الازدراء الأبدى، استيقظوا وترنموا يا سكان التراب، هلم يا شعبى ادخل مخادعك (أشعيا٢٦-١٩)

وأضع روحى فيكم فتحيون، وأضع فى أرضكم فتعلمون أننى أنا الرب، تكلمت وفعلت (حزقيال٣٧-١:٤)

ومع ذلك، فقد كان عامة الشعب يعلمون أن ذلك ليس فى أصل دينهم وأن المسألة لعبة سياسة، فعاملوا هذه الأفكار الجديدة بحسبانها غشاً وتدليساً ودسا على يهوه، لذلك ظلت مثل هذه الأفكار موضع تحفظ من غالبية اليهود، وكانت محل رفض واستنكار من المتزمتين التقليديين، حتى مجيئ المسيح، الذى كان تأكيده على فكرة البعث والحساب، من أهم حيثيات الحكم عليه بالكفران بدين يهوه، ومن ثم استحقاقه حكم الإعدام صلباً.

سفر التكوين التوراتى:

لنتذكر الآن أن المدارس البحثية فى التوراة تكاد تجمع على أن سفر التكوين أول أسفار الكتاب المقدس، يُعد من بين أحدث الأسفار وليس أقدمها، وأنه دوّن حوالى القرن الثالث قبل الميلاد، أو قبله بقليل، أى بعد العودة من الأسر فى بلاد الرافدين.

وأول ما تطالعنا به التوراة، فى أول أسفارها (التكوين)، وفى أول صفحات هذا السفر وفى الإصحاحات الثلاث الأولى، تطلع بقولها:

- فى البدء خلق الله السموات والأرض.
- وكانت الأرض خربة وخالية.
- وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه

- وقال الله: ليكن نور، فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً، وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً.

- وقال الله: ليكن جلد فى وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التى تحت الجلد، والمياه التى فوق الجلد، وكان كذلك ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح، يوماً ثانياً

- وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة.. ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً، ورأى الله ذلك أنه حسن.

- وقال الله: لتنبت الأرض عشباً وبقلاً، يبزر بزراً وشجرا ذا ثمر، يعمل ثمراً كجنسه بذره فيه على الأرض، وكان كذلك، فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً، يبزر بزراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء، وكان صباح يوما ثالثاً.

- وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء، لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون أنواراً فى جلد السماء، لتنير الأرض، وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم، وجعلها الله فى جلد السماء، لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء، وكان صباح، يوماً رابعاً.

- وقال الله: لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطير طير فوق الأرض، على وجه جلد السماء، فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة، التى فاضت بها المياه كأجناسها، وكل

طائر ذى جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن،وباركها الله قائلاً: أثمري وأكثري واملأى المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض، وكان مساء،وكان صباح يوماً خامساً.

- وقال الله: لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها.. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى الأرض، وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله، وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض..(بينما بداية الأصحاح الخامس تقول: يوم خلق الله الإنسان، على شبه الله عمله، ذكراً وأنثى خلقه وباركه، ودعا اسمه آدم يوم خلقه) ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً، وكان مساء، وكان صباح، يوماً سادساً.

- فأكملت السموات والأرض و كل جندها، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل، فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقاً.

- هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات، كل شجر البرية لم يكن بعد فى الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد،لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل فى الأرض، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقى كل وجه الأرض، وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ فى أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية.

- وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذى جبله، وأنبت الرب الإلـــه مـــن الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وشجرة الحياة فى وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر.

- وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اســـم الواحـــد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة، حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد هنـــاك المقـــل، وحجـــر الجزع،واسم النهر الثانى جيحون، وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حداقل وهو الجارى شرقى آشور، والنهر الرابع الفرات.

- وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن، ليعملها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكـــل منهـــا موتـــا تموت، وقال الرب الإله: ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له مُعيناً نظيره،وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها،وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء، وجميع حيوانات البرية، وأما لنفسه فلم يجـــد مُعيناً نظيره .

- فأوقع الرب الإله سباتاً علي آدم فنام ، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً، وبني الـــرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلي آدم ، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي. هذه تدعي امرأة لأنها من امرء أخذت،لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً، وكان كلاهما عريانين، آدم وامرأته وهما لا يخجلان.

- وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية ، التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية:من ثمر شجر الجنة نأكل ، وأما ثمرة الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه،لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله، عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجـة للعيون،وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكـل ، فانفتحـت أعينهما وعلما أنهما عريانين، فخاطا أوراق تين، وصنعا لأنفسهما مآزر.

- وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة، عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجـه الرب الإله، في وسط شجر الجنة ، فنادي الرب الإله آدم وقال له: أين أنت ؟ فقال: سمعت صـوتك فـي الجنة فخشيت لأني عريان، فاختبأت فقال: من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت ؟ فقال الرب الإلـه للمرأة: ما هذا الذي فعلت ؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت، فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلـت هـذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، علي بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتـك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه، وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً، وإلي رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك وقال لأدم: لأنك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعـب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك،وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلي الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلي تراب تعود.

- ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حي ، وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلـدٍ وألبسهما.

- وقال الرب الإله، هو ذا الإنسان، قد صار كواحد منا، عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يـده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلي الأبد.. فطرد الإنسان، وأقام شرقي جنة عـدن الكـروبيم، ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة.

من البيّن في هذه القصة التوراتية بشأن التكوين، أن هناك روايتين أصليتين تم دمجهما في قصة واحدة، وتشير إلي ذلك دلائل شاهدة:

مرة يقوم بفعل من أفعال الخلق من سمي (الله)، وهو في الأصل العبري (يهوه) كما في النص (في البدء خلق الله) و(قال الله)، ومرة يقوم بأفعال أخري للخلق زعيم المجمع الإلهي (إلَوهيم)، الذي ميزناه باسم (الـرب الإله)، وصيغة حديث الرب الإله تشير بوضوح سافر إلي تشاوره المستمر مع أعضاء هذا المجمـع (إلـوهيم)، كاستشارته لأعضائه (نعمل الإنسان علي صورتنا كشبهنا)، أو كما في إعلامه المجموعة الإلهية بالخبر المفـزع الذي أثار القلق الشديد لدي الرب الإله (هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر) وإن هذا الكـائن الجديد ربما تطاول وأخذ من شجرة الحياة الخالدة، فيصبح خالداً مثلهم.

في موضع يقوم الإله الخالق بصنع السماء والأرض دفعة واحدة (في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية)، بينما في موضع آخر تكون السماء والأرض موجودتين أصلاً كيمّ مـاء أزلـي، يفتقه الله عن بعضه إلي سماء وأرض.

في مشهد يقوم من لُقب بـ(الله) أويهوه بإنبات النبات في الأرض، ويضع فيها حيوانها ودباباتها، بينمـا

في مشهد آخر نجد برية بلا عشب يقوم الرب الإله فيها بخلق آدم،ثم فجأة يضعه في مكان أرضي يسمي الجنة ليزرعها ويفلحها ويعملها ويحفظها، وفيه نباتات مختلفة، أهمها شجرتين : شجرة المعرفة وشجرة الحياة، وواضح أن هذا المكان كان موطناً تعيش فيه مجموعة الآلهة (إلوهيم) مع كبيرها (الرب الإله) فقط، بدليل خشية الرب الإله أن يتجرأ مخلوقه (آدم) ويأكل من شجرة الخلد الخاصة بالآلهة الخالدة وحدها، خاصة بعدما تجرأ علي الأكل من شجرة المعرفة، مما جعله يصبح كالآلهة يميز بين الخير والشر.

هذا مع تناقض واضح يشير إلي هذا الانفصال الأكيد لروايتين مختلفتين من الأصل، تم مزجهما معاً، فنفهم في أحد مواضع قصة التكوين أن آدم عندما وضع في مقر إلهه الخالد، لم يكن محرماً عليه أكل ثمرة الخلد أساساً، بينما نفهم من موضع آخر أنه كان مخلوقاً للفناء (حتي تعود إلي الأرض، التي أخذت منها، لأنك تراب، وإلي تراب تعود).

ثم تضارب آخر، فلدينا رواية تؤكد أن عملية الخلق بدأت بخلق السماوات والأرض دفعة واحدة، فتقول الرواية: (إن الله قال: ليكن نور فخلق النهار والليل)، بينما الرواية التي تتحدث عن السماء والأرض كموجود واحد أصلى في هيئة غمر أزلي مظلم، ترجئ إيصال الإنارة إلي ما بعد فتق هذا المحيط إلي سماء وأرض.

ثم يظهر تضارب آخر بين القصتين، فى كنه عملية الخلق ذاتها فالله يتخذ كل مرة قراراً للخلق بالكلمة فقط، لكنه في كل مرة كان يتبع كلمته الخالقة بعمل يدوي من صنع يديه لإيجاد الشيء المراد خلقه : (وقال الله ليكن جلد .. فعمل الله الجلد، وقال الله لتكن أنوار .. فعمل الله النورين العظيميين .. الخ).

أما أبرز الشواهد علي مزج روايتين مختلفتين في التكوين التوراتي فهو الكيفية التي تم بها خلق الإنسان الأول، ففي مواضع من القصة نجد الخالق يخلق الإنسان دفعة واحدة، ككائن واحد، يجمع في ذاته الواحدة

الذكورة مع الأنوثة (ذكراً وأنثي خلقه وباركه، ودعا اسمه آدم) ثم يفصل عنه العنصر الأنثوي من خلال المـــرأة الضلع أو الضلع المرأة، بينما نجد في موضع آخر إشارة مختلفة تماماً، تقول (علي صورة الله خلقه ذكراً وأنثي خلقهم)،فهنا شخصان منفصلان متمايزان عن بعضهما تماماً من الأصل.

ولا مجال هنا لتفسير ذلك، سوي ما أسلفناه حول طبيعة التأليه اليهودي، الذي اتخذ طورين أساسيين، أو ما أسميناهما: طور التأليه الإلوهيمي في العصر الإبراهيمي وربما قبل إبراهيم بزمان طويـــل، واعتمـــد ثالوثـــاً يرأسه الرب الإله، وطور التأليه اليهوي في العصر الموسوي وما تلاه، واعتمد مجموعة بعول أو ثيران تتســـم بالصفات البركانية، مع التأثيرات التي لاشك دخلت هذا السفر إبان وجود اليهود أسري في بلاد الرافدين، حيـــث كان الجو الديني يعبق بسفري التكوين السومري والبابلي وهو ما نجده واضحاً في المقارنة التالية:

١- يقول: التكوين السومري: في البدء لم يكن في الوجود سوي محيط بدئي مظلم، وهذا الغمر كـــان هو (نمو)، وقام الإله الهواء الريح (إنليل) بالفصل في هذه المياه بين سماء وأرض.

ويقول التكوين البابلي: في البدء كان غمر مظلم أنثي هي (تيامت)، شقها (مردوخ) كما تشق الصدفة إلي قسمين: سماء وأرض.

ويقول التكوين التوراتي: في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية،وعلي وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماء.

٢- يقول التكوين البابلي: إن (مردوخ) أظهر اليابسة علي الماء بأنه علي سطح الماء ضفر حصيراً، وصنع شيئاً من التراب، وخلطه مع الحصير وهذا كون لوحاً صلباً فوق المياه، وهو الأرض.

ويقول التكوين التوراتي: لتجتمع المياه تحت السماء إلي مكان واحد، ولتظهر اليابسة، وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرضاً.

٣- ويقول التكوين السومري: إن إنليل شاء إزالة الظلمة من علي الغمر، (فأظهر للعيان) بـالنورين العظيمين، الشمس والقمر.

ويقول التكوين البابلي: إن (مردوخ) سلط القمر علي الليل، وجعله زينة في الليل، بـه يعـرف النـاس مواعيد الأيام، كذلك جعل الشمس للنهار.

ويقول التكوين التوراتى: وقال الله ليكن نور، فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء، لتفصـل بـين النهـار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. لتنير على الأرض.. فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل.

٤- يقول التكوين السومرى: قامت إلهة أنثى بعجن طين، خلقت منه الإنسان الأول، بعد أن عجنـت بسائل الخصب (أبسو وإنكى) المنى المقدس، وأن الإنكى أو الإنسى عصى أوامـر إلهيـة، فأكـل ثمـاراً محرمة، أصيب بسببها بمرض فى واحد من ضلوعه، حتى أشرف على الهلاك، «لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت»ولم ينقذه إلا استخراج ضلعه المريضة، لتصنع منها زوجة له، هى (نن تى) أو (ننتو) سـيدة الضلع، وتعنى أيضاً سيدة الحياة أو التى تحيى أو الوالدة، فالإنسان بذلك خلق ذكراً وأنثى معـاً فـى ذات واحدة، ثم فصلا بعد ذلك.

يقول التكوين التوراتى: «يوم خلق الله الإنسان، على شبه الله عمله ذكراً وأنثى خلقه، وباركـه، ودعـا

اسمه آدم يوم خلق.. وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده.. فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة.. ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أم كل حى. » ثم يقول إن حواء الحية (وهى من حوى، وحياة، وحيا أى فرج)، وقد خدعت زوجها (إليه اشتياقها) فأكل معها من ثمرة المعرفة المحرمة، وأول ما عرفاه ــ وهنا الغريب ــ أنهما عريانان؟ وهو الفعل الجنسى إذن! وهو ما ذهبنا إليه عند معالجتنا سفر التكوين السومرى.

٥- يقول التكوين البابلى: إن الدم هو سر النفس أو الحياة، لذلك كان لابد كى يوجد الإنسان حياً، أن تخلط النفس الحياة مع الطين، وكان الدم عند الأقدمين هو سر الحياة، عندما كانوا يرون المرأة المتميزة بالقدرة على الولادة تتميز بدورها بالدم الشهرى، وأن هذا الدم ينقطع عند الحمل فتصوروا أنه يظل فى الداخل ليعطى المولود حياته،وحتى يسلب التكوين البابلى المرأة هذا الحق البيولوجى، وينسبه للرجل قاموا بذبح (كنجو) ليخلطوا دمه بالطين، ويخلقوا الإنسان.

وفى التشريع التحريمى تقول التوراة: لكن احترز أن لا تأكل اللحم، لأن الدم هو النفس، فلا تأكل النفس مع الدم (تثنية- ٢١ ــ ٢٣)

٥- فى الختم (المفترض أنه سومرى حسب تصنيف الآثاريين)رأينا الحية توعز للأنثى الأولى بأكل ثمار التمر (ولا تنسى الثمر المحرم الذى أكله إنكى) فتدعو زوجها لأكله، مما يؤدى إلى انتهاء الخلود الفردى وبداية خلود النوع بالتناسل، بخروج إنكى أو إنسى وزوجته (نن تى)، من أرض الخلود دلمون، وكان الخلود يتمثل فى نبتة لو أكلها الفانى خلد. وفى ملحمة جلجامش علمنا أن هذه النبتة لا تنمو إلا فى أرض الخلود (دلمون) مقر الآلهة الخالدة.

ويقول التكوين التوراتى: وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذى جبله.. وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر.. وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلاً:من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكـل منهـا، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. (ثم خلق له حواء كما شهدنا) وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البريـة التـى عملها الرب الإله.. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما، وتكونان كـالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل.. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.. وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيـا للأبد.. فطرد الإنسان، وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة (ولنلحظ أن شجرة الخلد لم تكن محرمة أصلاً، ولكن أكل آدم من شجرة المعرفة نبه الرب الإله إلى أنه غفل عـن أمـر شجرة الحياة، مما اضطره إلى طرد المخلوق البشرى من موطن هذه الشجرة، حتى لا يخلد كالآلهة).

٦- والغرض من خلق الإنسان فى التكوين السومرى والتكوين البابلى، هو أن يحمل الإنسان عنـاء عمل الآلهة، بأن يزرع الأرض ويعمل فيها ليحفظها.

٧- وفي التكوين التوراتي أخذ الرب الإله آدم ، ووضعه ف يجنة عدن ليعملها ويحفظها.

٨- وفى التكوين البابلى:كان مفترضاً أن تتم عملية الخلق بالكلمة الخالقة للإله مردوخ، ومع ذلك كـان الخلق يتم دائماً بالصنعة اليدوية.

وفى التكوين التوراتى: كان الإله ينطق الكلمة الخالقة (ويبدو أنه كان لا يحدث شيء بالمرة عند نطقها)،

لذلك كان الإله يضطر دائماً إلى صناعة الشيء المراد خلقه بالعمل اليدوى.

وفى التكوين السومرى، وبعد عناء عملية الخلق، جلست الآلهة لتستريح وفى التكوين البــابلى، اســتوى مردوخ على عرشه، أما فى التكوين التوراتى، عندما (فرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل، استراح فى اليوم السابع).

المصادر الأجنبية

(١) **Chesneaux (jean):** In center d'Etudes et de Recherches Marxistes (C.E.R.M) Editions Sociales, Paris, ١٩٦٩. Sur Le "Mode de production a siatique

(٢) **Frankfort (Henri):** La Royautu et les dieax, paiot, paris, ١٩٥١, the Birth of Civilisation in the Near Eeast .

(٣) **Frankfort (Henri):** Wiliams and Norgate limted, Great Britain, ١٩٥١.

(٤) **Lods (A):** Israel from Its beginings to the middle, of the Eight century, london, ١٩٧٣.

(٥) **Smith:** God and Man in early Israel.

(٦) **Stade (B):** Lehrbuch der hebraischen grammtik, Libzig, ١٩٧٩.

(٧) **Wallhausen (J):** Die biblischen Atertu mer.

(٨) History of the Worls, the Outline of History, Vol٤ .

فهرس